ردُّ افْتِراءَاتِ الجَابِرِي

عَلَى

القُرآنِ الكَرِيمِ

تأليف
أ. د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ردُّ افْتِراءَاتِ الجابِري

على القرآن الكريم

تأليف
أ. د. محمد عمارة

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

※ ※ ※

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات بيّنات مُحكمات

- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢].

- ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

- ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

- ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

- ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ – ٨].

• ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

• ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

• ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

• ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٦٧].

• ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

• ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

• ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

• ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٥ - ١٩٧].

• ﴿ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

• ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

• ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

• ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

• ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٣٣ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

* * *

تمهيد

كانت المرة الأولى التي أرى فيها المرحوم الدكتور محمد عابد الجابري [١٣٥٥-١٤٣١هـ/ ١٩٣٦-٢٠١٠م].. وأقرأ له، وأسمع منه، في « الندوة » التي عقدها « مركز دراسات الوحدة العربية » حول « الحوار القومي الديني » - بمدينة القاهرة في [٢٥ - ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩م].

ويومها حدث خلاف بيني وبين الجابري حول فكرتين من الأفكار التي تضمنها بحثه في الندوة « حول الحوار القومي الديني »:

أولاهما: قوله: « إن الإسلام مقوم من مقومات القومية العربية ».. ولقد رفضت - في التعقيب المكتوب وفي الحوار - هذا الاختزال للإسلام - في علاقته بالعروبة والقومية العربية - .. ونبهت على أن هذه المقولة كان يقولها فيلسوف « البعث العربي » المرحوم ميشيل عفلق [١٣٢٨ - ١٤٠٩هـ/ ١٩١٠ - ١٩٨٩م] في بدايات مشروعه القومي.. ثم حدث تطور لفكر الرجل.. فقال: « إن القومية العربية قد وُلدت ولادة جديدة في ظل الإسلام.. وإن الإسلام هو الأصل، والمحور، والمكوِّن الأول، والأب الشرعي للقومية العربية

والأمة العربية.. ».

وبعد أن كان يقول: « **القومية أولًا** » أعلن في السنوات الأخيرة من حياته: « **أن الإسلام أولًا** »![1].

وتعجبت - في تلك « الندوة » - من أن يتجاوز عفلق مقولته تلك، بينما يتمسك بها الجابري!

والفكرة الثانية: التي اختلفت حولها مع الجابري هي قوله: إن تحقيق التراث يقتضي العودة إليه، واستيعابه، **وذلك لتجاوز كل التراث!**

ولقد نبهت - يومها - على أن هذه « الفكرة الخطرة » تعني القطيعة مع التراث!.. وهو ما لم يحدث حتى في الحداثة الغربية، التي وإن قامت قطيعة معرفية كبرى مع التراث الديني لأوربا عندما أحلت دينها الطبيعي - الحداثة - محل الدين الإلهي، إلا أنها قد أحيت تراث الإغريق والرومان - وخاصة في الفلسفة والقانون والآداب والفنون - وأقامت نهضتها الحديثة على « كلاسيكيات » هذا التراث..

وكذلك كان حال كل النهضات في كل الأمم والحضارات حتى شيوعية « ماو تسي تونج » [١٨٩٣ - ١٩٧٦م] قد أحيت

---

(١) انظر - عن مكانة الإسلام في المشروع الفكري لميشيل عفلق -: كتابنا التيار القومي الإسلامي، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

تمهيد



كانت المرة الأولى التي أرى فيها المرحوم الدكتور محمد عابد الجابري [١٣٥٥-١٤٣١هـ/ ١٩٣٦ - ٢٠١٠م].. وأقرأ له، وأسمع منه، في « الندوة » التي عقدها « مركز دراسات الوحدة العربية » حول « الحوار القومي الديني » - بمدينة القاهرة في [٢٥ - ٢٧ سبتمبر ١٩٨٩م].

ويومها حدث خلاف بيني وبين الجابري حول فكرتين من الأفكار التي تضمنها بحثه في الندوة « حول الحوار القومي الديني »:

أولاهما: قوله: « إن الإسلام مقوم من مقومات القومية العربية ».. ولقد رفضت - في التعقيب المكتوب وفي الحوار - هذا الاختزال للإسلام - في علاقته بالعروبة والقومية العربية - .. ونبهت على أن هذه المقولة كان يقولها فيلسوف « البعث العربي » المرحوم ميشيل عفلق [١٣٢٨ - ١٤٠٩هـ/ ١٩١٠ - ١٩٨٩م] في بدايات مشروعه القومي.. ثم حدث تطور لفكر الرجل.. فقال: « إن القومية العربية قد وُلدت ولادة جديدة في ظل الإسلام.. وإن الإسلام هو الأصل، والمحور، والمكوِّن الأول، والأب الشرعي للقومية العربية

وجدت جوانب من الكونفشيوسية.. ولم يحدث أن أمة من الأمم العريقة قد بنت نهضتها على « تجاوز كل التراث »!

وأذكر أن الجابري- عليه رحمة اللّـه - قد توتر يومها عندما سمع مني هذه الملاحظات[1].. لكن مرت الندوة.. وظلت هذه الذكريات عن أول لقاء جمعني بهذا المفكر العربي الكبير.

○ ومضت الأيام.. وكان « مركز دراسات الوحدة العربية »، وقطاعات من التيار العربي بالمشرق - والعلمانيون منهم على وجه الخصوص - يعانون من آثار هزيمة المشروع الناصري في [١٩٦٧م].. ويحاولون التعويض عن هذا التراجع بتبني المشروع الفكري للجابري، كبديل للمشروع الإسلامي الذي تصاعدت به الصحوة الإسلامية منذ سبعينيات القرن العشرين.. الأمر الذي جمع حول مشروع الجابري خليطًا من القوميين.. والعلمانيين.. والليبراليين.. بل وشريحة من اللادينيين.. يحاول كل فريق من هؤلاء جر فكر الجابري إلى رصيده، وتفسيره على النحو الذي يزكي نهجه وغايته!..

○ وكانت المرة الثانية التي رأيت فيها الجابري بالمملكة

---

(١) انظر: الحوار القومي الديني (ص١٢٢)، طبعة مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ديسمبر (١٩٨٩م).

العربية السعودية - بقرية « الجنادرية » - إبان « المهرجان الوطني السعودي للثقافة ».. ويومها لاحظت محاولات المتدينين السلفيين التحرش بالرجل، بينما احتفى به والتف حوله العلمانيون والليبراليون والحداثيون، الذين يقيم كثير منهم قطيعة معرفية كبرى وحادة مع الإسلام، ربما كراهة للجمود والتقليد الذي اشتهر به قطاع من « المؤسسة الدينية ».. حسبه الحداثيون - خطأ - على الإسلام!.. ولقد قرأت عن الحراسة الأمنية التي كانت تقيمها الأجهزة - بالمملكة - للجابري خلال زياراته للسعودية.. مخافة تحرشات المتدينين السلفيين!..

○ وعندما أصدر الرجل - في عقد التسعينيات من القرن الماضي - مجلته (فكر ونقد)، تفضل بإرسال أعدادها إليّ على عنواني بالقاهرة.. فأتاحت لي قدرًا من التعرف على بعض ملامح مشروعه الفكري الكبير، وعوضتني عن عدم المتابعة لكتبه العديدة التي حملت معالم هذا المشروع، الذي أعتقد أنه واحد من المشاريع المهمة في حياتنا الفكرية في السنوات الأخيرة..

○ وكنت كلما سنحت الفرصة بلقاء بعض المثقفين والمفكرين المغاربة، أسأل عن المسيرة الفكرية لهذا الأستاذ الكبير.. ولقد سررت كثيرًا عندما قيل لي: إن الرجل قد قلل من انحيازه للعلمانية، ومن نقده للصحوة الإسلامية،

بعد الحرب الأمريكية الغربية على العراق سنة [١٩٩١م] - حرب « عاصفة الصحراء » - وذلك إدراكًا من الرجل لتصاعد الهيمنة الغربية على الوطن العربي، وإدراكًا منه لدور التيار العلماني في خدمة التغريب.. ولدور الصحوة الإسلامية - كالقوة العربية الأولى - في ميدان المقاومة لهذا الزحف الأمريكي الجديد - الذي أطلق عليه - يومئذ - « النظام العالمي الجديد » .. والذي اعتبرته الإمبريالية الأمريكية « نهاية التاريخ »!..

سررت كثيرًا، عندما سمعت من بعض المثقفين المغاربة، عن هذا التطور في فكر الجابري ومواقفه.. فالرجل - بنظري - مفكر كبير، وصاحب مشروع فكري له في النخبة القومية والوطنية تأثير ملحوظ.. ثم إنه « وطني » و« عروبي » و « قومي »، لا يختلف حول انتمائه هذا من يتحلى بقدر من العدالة والإنصاف.

○ ومضت الأيام دون أن تتاح لي - بسبب المشاغل الفكرية - أن أتجاوز موقع « المراقب » لمشروع الجابري، ولمسيرته الفكرية..

وكان يعجبني في الرجل فضيلة كنت قد التزمتها منذ بداية مسيرتي الفكرية.. وهي العزوف عن الرد على منتقديه.. وذلك إيمانًا بأن العمل الفكري عندما يوضع بين يدي القراء، فإنهم يصبحون شركاء للمفكر في ملكيته.. وأنه كما أن من

حق البعض أن يثني على هذا العمل الفكري فإن من حق الآخرين أن يوجهوا له الانتقادات.. وإنه من الخير للمفكر والمؤلف - بعد الفراغ من العمل الفكري - أن ينصرف إلى عمل فكري آخر، بدلًا من أن يضيع جهده ويشغل نفسه، ويشغل الناس بالرد على منتقديه..

لقد التزم الجابري - عليه رحمة اللّـه - بهذه الفضيلة عندما تعرض مشروعه الفكري للنقد - الذي جاء من التيار العلماني - ممثلًا في جورج طرابيشي أساسًا.. وحسن حنفي أحيانًا، أو من التيار الإسلامي - ممثلًا في الفيلسوف الكبير الأستاذ الدكتور طه عبد الرحمن - ولم أقف كثيرًا عند رأي الذين أرجعوا موقف الجابري هذا إلى « التعالي ».. فالمهم الموقف.. أما النوايا فعلمها عند اللّـه.

○ ومرت الأيام.. ونوقشت بقسم الفلسفة في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - أواخر سنة [٢٠٠٨م] رسالة دكتوراه، أعدها الباحث محمد علي أبو هندي عنوانها (مشروع النهضة بين الدكتور محمد عمارة والدكتور محمد عابد الجابري).. وهي عمل فكري كبير، تجاوزت صفحاته الخمسمائة صفحة، وأحاط فيه الباحث بكل مفردات المشروع الفكري لكاتب هذه الدراسة.. وللدكتور الجابري[١].

---

(١) لقد طبعت دار السلام - بالقاهرة - هذه الرسالة الجامعية بعنوان (مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية: دراسة في فكر محمد عمارة=

ولقد قدمني الباحث - محمد علي أبو هندي - في دراسته هذه عن مشروع النهضة - نموذجًا للرؤية الإسلامية.. وقدم الجابري نموذجًا للرؤية العلمانية..

وعندما تصفحت هذه الرسالة الجامعية - وقد أهداني الباحث نسخة منها - أُتيحت لي الفرصة للاطلاع على ما لم أكن قد أحطت به من أفكار الجابري، وخاصة ما تعلق منها بالإسلام.. وعلى وجه أخص بما طرحه في كتابه الأخير عن القرآن الكريم..

ولقد أشفقت - ولا أقول غضبت - من الشذرات التي اطلعت عليها - في الرسالة الجامعية - حول ما بدا لي « مجازفات » وقع فيها الجابري حيال القرآن الكريم..

○ وفي هذا السياق، زارني صديق مغربي عزيز، وكاتب ومثقف كبير، واسع الاطلاع هو الأستاذ عبد القادر الإدريسي.. وتطرق الحديث إلى الدكتور الجابري، فقال لي الأستاذ الإدريسي: « إن كتابه عن القرآن - (مدخل إلى القرآن الكريم)، والجزء الأول منه (في التعريف بالقرآن) - قد أحدث « صدمة » في الحياة الفكرية بالمغرب، ولدى الرأي العام الإسلامي المغربي على وجه الخصوص..

○ ثم حدث أن دُعيت - يوم [١١ مارس ٢٠١٠م] -

=ومحمد عابد الجابري)، سنة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

للمشاركة في مناقشة وتحكيم رسالة دكتوراه بقسم الفلسفة في كلية دار العلوم - جامعة القاهرة - لباحث مغربي هو حسن موحى باقي - وهو مغربي يعيش في هولندا - عن (مناهج تجديد الفكر الإسلامي المعاصر في المغرب).. وفي فصول هذه الدراسة المتميزة - التي استغرقت مني في القراءة والفحص قرابة الشهر - عايشت معالم التجديد بالمغرب، لدى تيارات الفكر المختلفة - السلفية.. والصوفية.. والعلمانية والحداثية - الأمر الذي أتاح لي المزيد والمزيد من الوقوف على أفكار الأستاذ الجابري.. وبنصوصه هو، التي ساقها الباحث.. ومنها نصوص « المجازفات » - بل « الافتراءات » - التي وقع فيها الجابري حيال القرآن الكريم..

ومنذ ذلك التاريخ، أخذت أبحث عن كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم: في التعريفِ بالقرآن) - وهو سِفر كبير قاربت صفحاته الخمسمائة صفحة -.. وعن تفسيره للقرآن، الذي أسماه (فهم القرآن الحكيم: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول) - والذي صدر في ثلاثة أقسام.. تقرب صفحاتها من (١٣٠٠ صفحة) - أخذت أبحث عن هذا العمل الفكري - الذي زادت صفحاته عن (١٧٠٠ صفحة)، لأتبين - على نحو مباشر - حقيقة موقف الجابري من القرآن الكريم.

* * *

لقد كان الرجل دائم الإعلان عن أن القرآن الكريم شيء والتراث – الذي خصص له مشروعه الفكري – شيء آخر.. وبعبارته هو: « **لقد أكدنا مرارًا أننا لا نعتبر القرآن جزءًا من التراث** »[1].

أي أن القرآن عنده – كما هو عند كل مسلم – « مقدس ».. بينما التراث – الذي – دعا الجابري إلى تحقيقه وتفكيكه واحتوائه لتجاوزه كله – ليس مقدسًا.. فأردت أن أعرف – بشكل مباشر، وليس بواسطة ما ورد بالرسالتين الجامعتين – ماذا قال الجابري عن « المقدس ».. عن القرآن الكريم؟..

وبعد بحث ومتابعة حصلت على ما كتبه الجابري في التعريف بالقرآن.. وفي تفسيره له – وفق إعادته لترتيب سوره – حسب أسباب النزول ومسيرة الدعوة الإسلامية –.. حصلت على هذا العمل الكبير أثناء معرض القاهرة الدولي للكتاب [يناير سنة ٢٠١٠م]، فعكفت – منذ ذلك التاريخ – على دراسة هذا العمل الكبير، الذي أنجزه الدكتور الجابري في وقت وجيز جدًا !!..

○ ولقد قرأت – في الصفحات الأولى لمدخل الجابري إلى القرآن الكريم – أن أصدقاءه من الحداثيين السعوديين هم

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم: في التعريف بالقرآن (ص٢٦)، الطبعة الثانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة (٢٠٠٧م).

الذين اقترحوا عليه أن يكتب كتابه القادم عن القرآن!.. وبعبارته: «فلقد اقترح عليَّ صديق من السعودية ونحن على سيارته، متجهين إلى «عزيمة» عشاء في منزل صديق مشترك بالرياض، اقترح قائلًا: لماذا لا يكون الكتاب المقبل في القرآن؟»[1]!.

أي أن الحداثيين الذين تعلقوا بموقف الجابري في مواجهة المشروع الإسلامي والصحوة الإسلامية.. وتحمسوا لتفكيكه للتراث، وتجاوزه كله.. هم الذين اقترحوا عليه أن يقتحم هذا الميدان!.. ميدان «المقدَّس»!..

وقرأت - أيضًا - في الصفحات الأولى من هذا المدخل إلى القرآن الكريم.. أن الجابري قد عزم على الدخول إلى حقل دراسة القرآن وتفسيره - وفق أسباب النزول عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر سنة [٢٠٠١م] - أي في سياق تصاعد الحملة الصليبية الأمريكية الغربية على الإسلام وأمته وحضارته - وهي الحملة التي طالت القرآن الكريم -.. وبعبارة الجابري: «فإن التفكير في تأليف هذا الكتاب، قد جاء - بصورة ما - نوعًا من الاستجابة لظروف ما بعد أيلول/ سبتمبر سنة [٢٠٠١م]»[2].

وهي عبارة إن حددت «السبب» فإنها لم تحدد «المقاصد»

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم (ص١٤).

(٢) المرجع السابق (ص١٥).

من وراء العزم على تأليف هذا العمل الفكري الكبير.

* * *

ولقد شاء الله ﷻ أن يرحل الدكتور الجابري عن عالمنا في [٣ مايو سنة ٢٠١٠م]، بعد أن قطعت شوطًا كبيرًا في دراسة عمله الكبير عن القرآن الكريم وتفسيره له.. وبعد أن جمعت أغلب المادة العلمية، التي حددت اتجاه هذه الدراسة النقدية لما كتبه الجابري عن القرآن - من « مجازفات » بل « افتراءات » - !.. ويومها - وأمام جلال الموت.. وأمام رحيل المفكر الكبير عن عالمنا - خطر لي أن أضع حصيلة هذا الجهد الذي بذلته في « الأدراج ».. وأن أصرف النظر عن هذه الدراسة النقدية، لفكر الرجل الذي غادرنا إلى رحاب مولاه!..

وبعد أيام من التردد والقلق.. قلت لنفسي:

صحيح أن الجابري - الجسد قد رحل عن عالمنا، كما سنرحل نحن، وكما رحل وسيرحل كل من وما عدا الله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [القصص: ٨٨]. و ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ﴿٢٦﴾ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].. لكن المشروع الفكري للمرحوم الجابري قائم.. قرأه ويقرؤه الناس.. وأغلب الظن أن كتبه سيعاد طبعها إلى ما شاء الله.. ومن ثم، فمن حق هذا الفكر.. ومن حق قراء هذا الذي كتبه الجابري عن القرآن الكريم - خاصة - أن تقال فيه كلمة..

إن الرجل - في حدود فهمي - لم يكن يضيق - في حياته - بالنقد.. وأنا أتمنى أن لا تضيق روحه بالنقد الذي تقدمه صفحات هذه الدراسة.. خصوصًا وأن الأمر يتعلق « بالمقدَّس » وليس « بالتراث » وهو خاص بالوحي الإلهي، الذي خرجت من بين دفتيه المعالم والمقومات لهذه الأمة: عقيدتها.. وشريعتها.. وقيمها.. ومدنيتها.. وحضارتها.. فالقرآن الكريم هو « الرحم » الذي وُلدت منه أمة الإسلام.. ومنه تبلور الدين، الذي تصاعدت وتتصاعد ضده الحرب الصليبية التي زاد سعارها واشتد أوارها منذ [١١ سبتمبر ٢٠٠١م] - الذي فكر عنده وبسببه المرحوم الجابري في أن يكتب عن القرآن الكريم..

لقد ختم الجابري حياته الفكرية بهذا الذي كتبه عن القرآن - تعريفًا.. وتفسيرًا - وإذا كان فكرنا النقدي قد قام ويقوم - دائمًا وأبدًا - بالدفاع عن مقدسات الأمة - والقرآن في صدارتها - بصرف النظر عن حياة وموت الكتّاب والمفكرين.. فإن من واجبنا - وأيضًا من حق المشروع الفكري للأستاذ الجابري، ومن فروض الاحترام لقراء مشروعه الفكري - أن نعرض لدراسة هذا الذي كتبه عن القرآن الكريم..

وهكذا رجحت - عندي - كفة المضي في كتابة هذه الدراسة.. التي نرجو أن يكون ما فيها من نقد وتصويب مرشدًا لقراء كتاب الجابري عن القرآن الكريم. ومن ثم

« مُزيلًا » لما فيه من تأثيرات سلبية على عقول القراء..

الأمر الذي نرجو به من اللـه أن يغفر للجابري.. وأن يغفر لنا وإياه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

إنه – سبحانه – خير مسئول وأكرم مجيب.

٢٧ رجب ١٤٣١هـ

٩ يوليو ٢٠١٠م

أ.د. محمد عمارة

(١) موقف الجابري من التراث

لقد سبق وأشرنا إلى بحث الجابري الذي قدمه إلى ندوة « الحوار القومي الديني » التي عقدها « مركز دراسات الوحدة العربية » - في [٢٥ - ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٨٩م] - وإلى الخلاف الذي حدث بيني وبينه حول مقولته:

« العودة للتراث واحتوائه، لتجاوز كل التراث »..

وكيف أنني اعترضت بشدة على الدعوة إلى « تجاوز كل التراث » وهو ما لم تفعله أمة أو حضارة لها تراث، فضلًا عن أن تكون هذه الأمة والحضارة هي الأمة الإسلامية، الذي تميز تراثها بصبغة إسلامية، صنعتها المعايير التي جاء بها ديننا الحنيف.

لكن الجابري - الذي كأنه أُخذ، بتسليطي الضوء على مقولته هذه، تلك التي لا تُحيي التراث، ولا تقف عند نقده والانتقاء منه - مع تجاوز بعضه -.. وإنما تقيم قطيعة مع هذا التراث، الأمر الذي يقيم فراغًا في مساحات الماضي، يؤدي - بالحتم - إلى أن يملأه الآخرون!.

وتلك هي التجربة المرة والمأساوية، لأمتنا - ولغيرها من الأمم - التي ابتليت بالتغريب الذي جاءنا في ركاب

الغزاة الأوربيين.. فالقطيعة مع اللغة القومية أحدثت الفراغ الذي ملأته اللغات الأوروبية.. والقطيعة مع الفلسفة الإسلامية - علم التوحيد - ملأت فراغنا بالفلسفات الأوربية - الوضعية والمادية واللادينية -.. والقطيعة مع الفقه الإسلامي والشريعة الإسلامية، ملأت فراغنا بالقوانين الوضعية الأوربية اللادينية..

وهكذا كانت القطيعة مع التراث - أي « تجاوزه » بعبارة الجابري - السبيل إلى أن نستبدل بتراثنا تراث الغزاة؛ لأنه لا يمكن لأمة من الأمم أن تعيش بدون تراث، وأن تترك ماضيها ومرجعيتها « فراغًا ».. فالفراغ - في العلم - مستحيل الوجود. وكما قال أحد العارفين بالله:

« القلب كالإناء، إن لم يملأه ماء الحكمة والمعرفة، ملأه هواء الجهل والعصيان »!..

وماضي الأمة مثل قلبها، إن لم يملأه تراثها - بخصوصياته المتميزة - ملأه تراث الآخرين الغرباء!..

لكن.. رغم هذه الحقيقة، التي تبلغ حد البداهة، مضى الجابري - في مشروعه الفكري، رغم « وطنيته » و « قوميته » - في طريق الدعوة إلى « تجاوز كل التراث »!.. فقال - في كتابه (حوار الشرق والغرب) -:

« إن الحداثة تبدأ باحتواء التراث وامتلاكه؛ لأن ذلك وحده هو

السبيل إلى تدشين سلسلة من « القطائع » معه إلى تحقيق تجاوز عميق له، إلى تراث جديد نصنعه، تراث جديد فعلاً.. »[١].

فالتجاوز للتراث – عند الجابري – هو تجاوز عميق!.

وقال كذلك – في كتابه (إشكالية الفكر العربي المعاصر) –:

« إن الإبداع، بمعنى التجديد الأصيل، لا يتم إلا على أنقاض قديم واقع احتواؤه وتمثله وتجاوزه بأدوات فكرية معاصرة.. »[٢].

ولم يدع الجابري مجالًا للغموض حول تحديد ماهية هذه « الأدوات الفكرية المعاصرة » التي دعا إلى اتخاذها واستخدامها لتجاوز كل تراث الإسلام..بل أعلن الرجل – في كتابه (الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية) – أن الآليات الغربية هي سبيله لتحويل تراثنا الإسلامي إلى « أنقاض » وإلى تجاوز هذه « الأنقاض » كلها على نحو عميق!.. وبنص عبارته:

« .. سيلاحظ القارئ أننا نوظف مفاهيم تنتمي إلى فلسفات أو منهجيات أو « قراءات » مختلفة متباينة، مفاهيم يمكن الرجوع ببعضها إلى « كانت » [١٧٢٤ – ١٨٠٤م] أو « فرويد »

---

(١) الجابري: حوار الشرق والغرب، (ص ٦٧)، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٩٥م).

(٢) الجابري: إشكالية الفكر العربي المعاصر، (ص ٤١)، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٨٩م).

[١٨٥٦ - ١٩٣٩م] أو « باشلار » [١٨٨٤ - ١٩٦٢م] أو « ألتوسير » [١٩٢١ - ١٩٩٠م] أو « فوكو » [١٩٢٦ - ١٩٨٤م]، بالإضافة إلى عدد من المقولات الماركسية، التي أصبح الفكر المعاصر لا يتنفس بدونها »[١]!.

تلك هي المفاهيم والمناهج التي اعتمدها الجابري واستخدمها لتحويل تراث الإسلام إلى « أنقاض»؛ وذلك لتجاوز هذه « الأنقاض»!.

صحيح - كما قال - أن هناك تباينًا بين هذه المفاهيم والمناهج، لكن الجامع بينها جميعًا هي أنها غربية!.. وأنها قد أقامت قطيعة معرفية كبرى بين الحداثة الأوربية وبين التراث الديني على وجه الخصوص!..

ويمضي الجابري في هذا الطريق، فيعلن عن: « ضرورة الأخذ بالحداثة الأوربية في مختلف الميادين »[٢]!..

ولأن الجابري قد تحدث كثيرًا - في مشروعه الفكري - عن « بنية التراث ».. وعن « تحليل هذه البنية » وعن « تفكيكها ».. فلقد تكرم على قرائه فصارحهم وجَلَّى لهم مقاصده من وراء هذه المصطلحات، فإذا هذه المقاصد هي: « تحليل بنية التراث للقضاء عليه، ونسخ ثوابت الهوية، بما فيها الدين »!!

---

(١) الجابري: الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية (ص١٢)، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٨٢م).

(٢) الجابري: المشروع النهضوي العربي، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٠م).

وحتى لا يتوهم القارئ أننا نبالغ في تصوير مقاصد الرجل، أو «تؤول» كلامه فإننا نقدم عباراته هو، التي يقول فيها:

«كيف نتحرر من سلطة التراث علينا؟

تلك هي مهمة المنهج الذي نقترحه. إنه منهج تحليلي.. بمعنى تحليل البنية.. إن تحليل البنية معناه القضاء عليها، بتحويل ثوابتها إلى تحولات ليس غير، وبالتالي التحرر من سلطتها، وفتح المجال لممارسة سلطتنا عليها. هذا النوع من التحليل هو ما أسميه «بالتفكيك».. تفكيك العلاقات الثابتة في بنية مّا بهدف تحويلها إلى لا بنية، إلى مجرد تحولات، وهذا يندرج تحته - كما هو واضح - تحويل الثابت إلى متغير، والمطلق إلى نسبي، واللاتاريخي إلى تاريخي، واللازمني إلى زمني..»[١].

هكذا نجد أنفسنا أمام «المنهج التفكيكي: الصارم.. والصادم»!، الذي يستخدم «التفكيك العبثي والعدمي» لما بعد الحداثة.. تفكيك كل شيء في ميراثنا الإسلامي، بما في ذلك «المطلق» - أي الدين - واللاتاريخي - أي الثوابت - واللازمني - أي الخالد - .. تفكيك كل ذلك، بتحويل المطلق إلى نسبي.. واللاتاريخي إلى تاريخي..

---

(١) الجابري: التراث والحداثة (ص٤٧، ٤٨)، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٩١م).

واللازمني إلى زمني.. كل ذلك للتحرر من هذا التراث، وتحويله إلى أنقاض.. وتجاوزه كله.. لا إلى المجهول، وإنما إلى البضاعة الجاهزة المعلبة التي تزاحم بضاعتنا، وتحاول أن تغلبنا على هويتنا منذ قرنين من الزمان!..

والجابري - وتلك من فضائله - لا يدع مجالًا للبس في تحديد مقاصده من وراء مشروعه لنقد التراث وتفكيك بنيته.. فهو، في النص الذي سقناه للتوّ، قد أعلن أن التفكيك والتجاوز لا يستثني الدين - « المطلق » - و « اللاتاريخي - اللازمني » - الذي سبق وأخرجه الجابري من إطار التراث - ولذلك رأيناه يلح على هذه الفكرة الشاذة، التي سبق وقدمها التنويريون الغربيون إزاء تراث الغرب الديني - اليهودية والنصرانية - عندما استبدلوا - بالتأويل - « دين الحداثة الطبيعي » بالدين الإلهي!.

لا يدع الجابري مجالًا للبس في أنه يسير - بإزاء الإسلام - في هذا الطريق ويسعى ليدخل بنا في هذا النفق المظلم، الذي تعاني منه أوربا في هذه الأيام، بعد أن قتلت الحداثةُ المسيحيةَ أو همّشتها، ثم عجزت الحداثةُ عن أن تجيب على الأسئلة الأبدية للإنسان، وعن أن تمنحه طمأنينة الإيمان الديني، فغدت أوربا « فراغًا دينيًا »، تتمدد فيه - لتملأه - مختلف العقائد، بما في ذلك الإسلام..

وبعبارة القس الألماني - عالم الاجتماع - « د. جوتفرايد كونزلن »:

« لقد مثلت العلمنة: تراجع السلطة المسيحية.. وضياع أهميتها الديني.. وتحوّل معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية، والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين..

لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني..

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانًا كاملًا.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضًا كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون.. وهي التي تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم..

لكن.. وبعد تلاشي المسيحية.. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدم لها الإجابات.. فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين..

وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتُفكِّكُ أنساقها إلى - العقلية والعلمية - عدميةُ ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة.. فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث.. وتحققت نبوءة نيتشه [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن « إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون (نجمهم) الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة ذات بُعْد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئًا خارج نطاقه ».. وبعبارة ماكس فيبر [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: « لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم »!.

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفي ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوربا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة؛ من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخارقة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام، الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني علي الإنسان الأوربي، عندما أصبح معبدها العلمي عتيقًا.. ففقد الناس « النجم » الذي كانوا به يهتدون: وَعْد الخلاص المسيحي.. ثم وَعْد الخلاص

العلماني»[١]!

هذا هو الطريق - أو النفق المظلم - الذي أدخل التنوير الغربي أوربا والمسيحية فيه.. والذي مثل كارثة قاتلة للمسيحية.. ثم للعلمانية أيضًا..

ولا يدع الدكتور الجابري مجالًا للَّبس في أنه يسير في هذا الطريق.. وإلى هذا النفق المظلم.. فيقول: «ينبغي تحويل العقيدة إلى رأي..»![٢]، ثم يزيد الطين بلة عندما يعلن أن دعوته تلك إلى التفكيك والتجاوز لكل التراث والتحرر منه، لا تقف عند العقيدة - وهي أم الثوابت وأس القواعد في دنيانا وآخرتنا - وإنما يضيف إليها كل الثوابت التي تجعل منا أمة متميزة حضاريًا، وذات مناعة تجعلها مستعصية على اجتياح التغريب الذي يسعى إلى نسخ ومسخ وتشويه ثوابت الهوية، التي تأسست على قواعد الإسلام..

نعم!.. يذهب الجابري على هذا الطريق البائس.. وإلى هذا النفق المظلم، فيقول: « .. اللغة والشريعة والعقيدة والسياسة، في الماضي والحاضر، هي العناصر الرئيسية التي تتكون منها المرجعية التراثية، التي قلنا: إنه لا سبيل إلى تجديد

---

(١) جوتفرايد كونزلن: مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا (ص١٧، ١٨)، تقديم وتعليق: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (١٩٩٠م).

(٢) الجابري: تكوين العقل العربي، (ص٥)، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٥م).

العقل العربي إلا بالتحرر منها »[١]!

هكذا أعلن الجابري « ثورته » للتحرر من « العناصر الرئيسية التي تتكون منها المرجعية التراثية.. بما فيها العقيدة والشريعة واللغة والسياسة »!

ولم يقل لنا الجابري – عفا اللّـه عنه – من الذي سيصنع لنا البديل عن هذه العناصر الرئيسية التي تتكون منها مرجعيتنا التراثية.. وإن كان قد سبق وأعلن عن منهجية صناعة هذا « البديل ».. منهجية: « كانت » و « فرويد » و « باشلار » و « ألتوسير » و « فوكو » و « كارل ماركس » [١٨١٨ – ١٨٨٣م] .. فلم يدع الرجل مجالاً للشك في نوعية المقاصد التي تَغَيّاها من وراء نقده وتفكيكه لتراث الإسلام..

لقد أقامت الحداثة الغربية التي دعا الجابري إلى « ضرورة الأخذ بها في مختلف الميادين »، أقامت قطيعة معرفية كبرى مع موروثها الديني – اليهودي.. النصراني –.. لكنها أحيت وجددت مواريثها الإغريقية الرومانية – في الفلسفة.. والقانون.. والعلوم.. والآداب والفنون – وأسست نهضتها الحديثة على « كلاسيكيات » هذه المواريث.. أي أنها لم تُقِمْ قطيعة مع كل مكونات مرجعيتها التراثية.. أما الجابري، فإنه – وبنصوص عباراته – قد دعا إلى « تدشين سلسلة من

---

(١) الجابري: تكوين العقل العربي (ص٣٣٢).

القطائع مع العناصر الرئيسية التي تتكون منها المرجعية التراثية.. بما في ذلك: اللغة.. والشريعة.. والعقيدة .. والسياسة »!.

وهكذا.. فبرغم « عروبة الرجل » و « قوميته العربية »، فلقد وضع اللغة ضمن العناصر المطلوب « التحرر منها »!.. ورغم إسلام الرجل، فلقد وضع « العقيدة والشريعة » في هذا الإطار أيضًا!..

ويبدو - واللّـه أعلم - أنه قد حسب كل ذلك من صناعة « الأعراب » عندما قال:

« إن الأعرابي هو صانع العقل العربي »![1].. فدعا - سامحه اللّـه - إلى إلقاء كل ذلك في سلة مهملات التاريخ!.. وهي دعوة لا أظن أنه قد سبقه إليها أحد من الحداثيين والعلمانيين..اللهم إلا سلامة موسى [١٨٨٨ - ١٩٥٨م] على وجه التحديد[2].

* * *

(١) الجابري: تكوين العقل العربي (ص٧٥).

(٢) انظر كتاب سلامة موسى: اليوم والغد، طبعة القاهرة، سنة (١٩٢٨م)، وانظر كتابنا: الإسلام بين التنوير والتزوير، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٥م).

(٢)

الترتيب الجابري للقرآن الكريم

لقد اختار الجابرِي لكتابه - الذي عرَّف فيه بالقرآن الكريم - ذات العنوان الذي سبق واتخذه المستشرق الفرنسي «بلاشير» (١٩٠٠ - ١٩٧٣م) لكتابه عن القرآن - عنوان (مدخل إلى القرآن) - .. وأعلن الجابري - في مشروعه عن القرآن، تعريفًا وتفسيرًا - أنه قد اختار إعادة ترتيب سور القرآن الكريم وفق أسباب النزول ومسار الدعوة المحمدية، ليكون هذا الترتيب الجديد والتفسير الجديد أقدر على مواكبة مسيرة الدعوة المحمدية والتأريخ لها..

ومن حق الباحث في القرآن الكريم أن يسأل:

لماذا العدول عن الترتيب الإلهي للقرآن - ترتيبه في اللوح المحفوظ.. والذي نزل به جبريل على رسول اللّـه ﷺ أثناء المراجعات التي تمت بين جبريل والرسول في السنوات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ وهي المراجعات التي وردت أحاديثها في الصحاح.. والتي أوردها الجابري في كتابه عدة مرات؟؟..

- لماذا العدول عن هذا الترتيب الإلهي للوحي القرآني، الذي أكدته مراجعات جبريل - الذي نزل بالوحي - مع

الرسول - الذي تلقى الوحي -.. والذي جُمع القرآن وفقًا له في حياة النبي - عليه الصلاة والسلام -.. وهو الترتيب الذي سار عليه الصحابة الذين كتبوا الوحي.. وحفظوه.. وجمعوا صحائفه.. ثم دونوه وأذاعوه في الأمصار.. وهو - أيضًا - نفس الترتيب الذي سارت عليه الأمة بشعوبها وقبائلها وأقطارها وعلمائها ومذاهبها عبر الزمان والمكان؟؟..

يقول الجابري:

« إن الهدف عندنا من « الترتيب حسب النزول » هو التعرف على المسار التكويني للنص القرآني باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمدية »[1].

وهنا، من حق الباحث أن يسأل:

- هل القرآن كتاب تأريخ لمسار الدعوة المحمدية؟!..

- أم أنه كتاب هداية للدين والدنيا والآخرة.. للفرد والأمم والشعوب، عبر الزمان والمكان؟!

وأن مسار الدعوة المحمدية هو مجرد « مفردة » من مفردات هذا القرآن الكريم؟..

وأن الترتيب الجابري للقرآن كي يكون تأريخًا لمسار الدعوة المحمدية، قد يفضي إلى ربطه بهذا التأريخ، ومن ثم يفتح باب « التاريخية والتاريخانية » التي تحيل القرآن الكريم إلى « الاستبداع »

(١) الجابري: مدخل إلى القرآن (ص٢٤٥).

بعد طوى التاريخ صفحات الأحداث التي مثلتْ مسار الدعوة الإسلامية، والتي حدثت قبل نحو خمسة عشر قرنًا؟!..

إن المستشرق الإنجليزي « مونتجمري وات » (١٩٠٩ - ٢٠٠٦م) - وهو قسيس أنجليكاني.. ابن قسيس - قد كتب - بعد أكثر من ثلث قرن في دراسة العربية والقرآن والإسلام - يقول: إن هذا الترتيب القائم الآن في المصحف العثماني هو الترتيب الإلهي الذي انتهى إليه الوحي مع رسول الإسلام.. وليس ترتيبًا بشريًا من الصحابة، حتى تصح إعادة النظر فيه.. قال هذا المستشرق:

« .. وإذا لم يكن محمد هو الذي رتب القرآن بناء على وحي نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور أن يقوم بهذا العمل زيد بن ثابت أو أي مسلم آخر »[1].

ولقد حسم القرآن الكريم ذاته أمر هذا الترتيب .. فالله ﷻ قد أنزله منجمًا ليثبِّت به فؤاد رسوله ﷺ في مواجهة التحديات الشرسة التي واجهت الدعوة الإسلامية ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

ثم تم الجمع الإلهي لهذا القرآن ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾

(١) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص١٧٩)، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة (٢٠٠١م).

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]. ولقد راجع جبريل ﷺ مع الرسول ﷺ هذا الجمع وهذا الترتيب - ليس وفق التنجيم الذي نزل عليه القرآن، وإنما وفق صورته المستقرة في اللوح المحفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

فهذا الترتيب، الذي راجعه جبريل مع الرسول ﷺ هو الترتيب الإلهي للقرآن الكريم.. وهو الذي سارت عليه الأمة منذ تدوين القرآن وجمعه على عهد النبي ﷺ.. وحتى الدكتور محمد عابد الجابري، الذي ابتدع ترتيبه الجديد للقرآن، وفق «أسباب النزول ومسار الدعوة المحمدية».. أي أن الجابري قد ارتد بالقرآن عن ترتيبه في اللوح المحفوظ، والذي راجعه جبريل مع الرسول، والذي دُوِّن وفقه وجُمع على أساسه في السنوات الأخيرة من حياة الرسول ﷺ.. ارتد الجابري بترتيب القرآن عن هذا الترتيب «الأصلي» و«النهائي» إلى حيث رتبه - كما يقول - وفق «التنجيم» الذي حاول البعض - ومنهم الجابري - ربطه بأسباب النزول!..

وحتى نكون منصفين للرجل - الذي انتقل إلى رحاب ربه - في اختياره لهذه «البدعة» نشير إلى أن نفرًا من المستشرقين اليهود الذين قضوا عقودًا من حياتهم في محاولات البحث عن ثغرات يطعنون منها في حفظ

القرآن الكريم عن التغيير والتبديل والتحريف.. والذين حركتهم على هذا الطريق مقاصد «إلحاق» القرآن بالكتاب «المقدس» عند اليهود والنصارى.. و «التسوية» بينهما في التحريف والتغيير والتبديل..

إن نفرًا من هؤلاء المستشرقين اليهود قد مكثوا عقودًا يحاولون التشكيك في إحكام القرآن وحفظه.. وفي تأليف نسخة من القرآن مغايرة لنسخة المصحف الإمام.. ثم باءت جهودهم هذه بالفشل والخيبة والخذلان، فعدلوا عن هذا الذي صنعه - أخيرًا - الدكتور الجابري!..

ولقد سجلت ذكر هذه المحاولات وهذه الخيبة (دائرة المعارف الإسلامية) التي كتبها المستشرقون الغربيون أنفسهم.. فقالت:

«لقد هوت محاولات المستشرقين - في ثلاثينيات القرن العشرين - إصدار نسخة أخرى من القرآن غير نسخة عثمان»[١].

لكن الجابري جاء - بعد ستة عقود - ليجدد، هذه المحاولة الاستشراقية «التي هوت» رغم الجهود التي بذلها فيها المستشرقون - من أمثال «فيشير» Fischer

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة القرآن (١٦/ ٨١٧٩-٨١٨٦) الترجمة العربية، طبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

[١٨٦٥ - ١٩٤٩م] و« بريتسل » Pritz [١٨٩٣ - ١٩٤١م] و « بيرتون » Barton و « ونسبرو » Wansbroagh -.. جاء الجابري ليكرر هذه « المحاولة » التي « هوت »، والتي بذل فيها هؤلاء المستشرقون عقودًا من حياتهم البحثية، محاولين وضع ترتيب آخر للقرآن الكريم غير هذا الذي جاء في المصحف الإمام - مصحف عثمان - وهو الترتيب الذي راجعه جبريل ﷺ مع الرسول ﷺ والذي هو ترتيب القرآن في اللوح المحفوظ..

وقد يقول قائل:

- وماذا على الجابري أن لا « يجتهد ».. وأن ينجح فيما أخفق فيه المستشرقون؟.. فقد تكون للرجل « حجج ومبررات » لم يصل إليها هؤلاء المستشرقون.. ثم إن الرجل لا يدعو إلى إلغاء الترتيب القائم في المصحف الإمام - الذي اجتمعت عليه الأمة - وإنما دعواه: أن تفسير القرآن - أو « تفهيمه »، وفق مصطلحه - إنما يكون أوفق وأوضح إذا تم وفق - ترتيبه حسب أسباب النزول - .. ولذلك سمى الرجل تفسيره: (فهم القرآن: التفسير الواضح حسب ترتيب النزول)..

ومع « الوجاهة الشكلية » لهذا التساؤل، فإننا نقول - وهذا مهم جدًّا -:

- إن الجابري نفسه - الذي ابتدع هذه البدعة، فأعاد ترتيب

القرآن وتفسيره وفق أسباب النزول - قد اعترف - هو - أن هذا « الأساس » - الترتيب وفق النزول - الذي بنى عليه مشروعه، والذي دفعه إلى « بدعته »، هو أوهى من بيت العنكبوت!..

○ فبعد أن خدع الجابري نفسه - وحاول خداع قرائه - بقوله:

« لقد كان طبيعيًا لكل من يريد فهم القرآن أو استنباط أحكام منه تغطي المستجدات، أن يشعر بالحاجة إلى معرفة ما اصطلح عليه « بأسباب النزول » الأمر الذي يقتضي ترتيب السور حسب نزولها »[١].

○ وبعد أن جازف الجابري فأعلن أن لكل آية في القرآن سببًا لنزولها.. ومن ثم فمن المشروع إعادة ترتيب القرآن كله وفق أسباب النزول.. وقال:

« .. ولا نجافي الصواب إذا قلنا - مع بعض القدماء - [ولم يقل لنا من هم هؤلاء القدماء!]: إنه ما من آية في القرآن إلا ومن ورائها سبب لنزولها.. »[٢].

○ بعد أن جازف الجابري هذه المجازفات، عاد - هو - فأفاض في الحديث عن أن هذا « الأساس » الذي بنى عليه « مشروعه - البدعة » هو - كما قلنا - أوهى من بيت

---

(١) الجابري: في التعريف بالقرآن (ص٤٢٠).

(٢) المرجع السابق (ص٤٣٠).

العنكبوت!..

○ فبعد أن قطع – مع القدماء الذين لم يذكر لنا اسم واحد منهم – أن لكل آية من آيات القرآن الكريم سببًا لنزولها.. عاد ليقول:

« .. وقول بعضهم: إنه ما من آية في القرآن إلا ولها سبب لنزولها ». إن عنصر المبالغة في هذه العبارة واضح! ذلك لأن ما هو متداول من « أسباب النزول » قليل جدًا بالنسبة لآي الذكر الحكيم »[1].

لقد نقض الرجل غزله[2].. وأقر بأن الآيات التي لها سبب نزول هي « قليلة جدًا » بالنسبة لمجموع آيات القرآن.. الأمر الذي يدعو للتساؤل:

كيف يتم تفسير كل القرآن وفق أسباب النزول، بينما الآيات التي لها أسباب نزول « قليلة جدًا » بالنسبة لمجمل آيات القرآن الكريم؟!.

---

(١) الجابري: فهم القرآن، القسم الثالث (ص٣٧٠)، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٨م).

(٢) يلاحظ القارئ لكتاب الجابري الكمّ الهائل من التناقضات، التي تقطع بأن الرجل كان حاطب ليل في جمع مادة هذا الكتاب من على الشبكة الدولية للمعلومات.. ولقد ألجأته السرعة في إخراج كتابه هذا إلى عدم التمحيص والتدقيق في المادة التي جمعها.. وسيرى القارئ – في دراستنا هذه – نماذج عديدة وغريبة من هذه التناقضات!.

أي: كيف أقام الجابري « مشروعه - البدعة » على إعادة ترتيب كل القرآن وفق أسباب النزول، والتي لا وجود لها بالنسبة للأغلبية الساحقة من آيات القرآن الكريم؟!..

○ إن مصادر علوم القرآن - التي اشتهرت في تراثنا الإسلامي، والتي رجع إليها الجابري - تقول بندرة الآيات القرآنية التي لها سبب نزول..

وإذا كان السيوطي (٨٤٩ - ٩١١هـ/ ١٤٤٥ - ١٥٠٥م) والواحدي (٤٦٨هـ/ ١٧٠٦م) قد اعتُمدا كأشهر من صنف في أسباب النزول.. فإن الآيات التي لها سبب نزول عند الواحدي - الذي كان يدقق في الروايات إلى حدٍّ ما - هي (٤٧٢ آية) من مجموع آيات القرآن البالغة (٦٢٣٦ آية) أي نسبة (٧,٥٪) من آيات القرآن الكريم![1].

وعند السيوطي - الذي كان يتساهل في قبول الروايات - يصل عدد الآيات التي لها سبب نزول إلى (٨٨٨ آية) - أي نحو (١٤٪) من آيات القرآن الكريم![2].

فهل يصح لمفكر في قامة الجابري أن يقيم مشروعه الضخم على هذا « السبب النادر » لنزول « النادر » من آيات

---

(١) الواحدي: أسباب النزول، طبعة الحلبي، القاهرة، سنة (١٩٦٨م).

(٢) السيوطي: أسباب النزول، طبعة دار التحرير، القاهرة، سنة (١٣٨٢هـ)، وانظر كتابنا: سقوط الغلو العلماني (ص٢٥٤ - ٢٦٢)، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (٢٠٠٢م).

القرآن الكريم؟!..

○ وحتى هذه الآيات النادرة، التي رويت في نزولها «أسباب» - يسميها العلماء «مناسبات» لا «أسبابًا» - فإن الروايات التي تحدثت عن هذه الأسباب هي الأخرى - أو أغلبها - لا تزيد في الثقة والقوة عن خيوط العنكبوت!..

والغريب والعجيب أن الجابري - الذي أعاد ترتيب كل القرآن وفق أسباب النزول - يعود فينقض هو أساس «مشروعه - البدعة» عندما يهيل التراب على ما جاء من روايات حول أسباب النزول للنادر من آيات القرآن الكريم.

يعود الرجل فيقول:

«إن كثيرًا من الروايات التي تتحدث عن أسباب النزول تشي هي نفسها بما يطعن في صدقها، وأنها إنما حيكت من أجل «تفسير» لفظ أو عبارة[1].. وإن ما يروى كأسباب نزول هو في الغالب اجتهادات، الهدفُ من روايتها ربط آية أو آيات بحوادث سبقت أو تأخرت عن نزول الآية[2].. ولقد أكدنا مرارًا أن روايات أسباب النزول هي في الغالب نتيجة لبحث الرواة عن سبب مناسب للآية[3].. ولذلك، كان لا بد من التعامل بحذر مع

---

(١) تفهيم القرآن، القسم الأول (ص١٦٥).
(٢) المرجع السابق (ص٣٤١).
(٣) المرجع السابق (ص٣٥٣).

«أسباب النزول».. »[١].

وعند تفسير الجابري لسورة الحجر - في سياق «ترتيبه - البدعة» وفق أسباب النزول - يقول عن أسباب نزول آيات هذه السورة:

«لقد وردت عدة أخبار عن «سبب نزول» آيات من هذه السورة تكاد تكون كلها مصطنعة»[٢].

ومع ذلك مضى الرجل ففسر هذه السورة - كغيرها من كل سور القرآن الكريم - وفق هذه «الروايات المصطنعة»!..

وكذلك كان الحال مع تفسيره لسورة فصلت.. التي قال عن روايات أسباب نزولها:

«.. وما ورد في بعضها من «أسباب نزول» لا يعدو أن يكون عبارة عن التماس وقائع وأحداث «تصلح» أن تعتبر «أسباب نزول»، أي أدوات للشرح والإيضاح، والغالب ما يخلطون فيها بين المكي والمدني من النوازل.. »[٣].

ثم يمضي الجابري - في العديد من صفحات مشروعه - الذي بناه على ترتيب كل القرآن وفق أسباب النزول - فيقول:

---

(١) تفهيم القرآن، القسم الأول (ص٣٥٤).

(٢) تفهيم القرآن، القسم الثاني (ص٣١)، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٨م).

(٣) المرجع السابق (ص١١٠).

« إن معظم الآيات التي يقال عنها إنها نزلت بسبب « كذا »، لا شيء يثبت أنها نزلت فعلًا بسبب ذلك، فلم يكن هناك تسجيل بهذا المعنى، بل كل ما هناك هو أن المهتمين بتفسير القرآن في مراحل لاحقة، كانوا يسألون الصحابة أو التابعين عن النوازل التي يمكن أن تكون لها علاقة بهذه الآية أو تلك، وهكذا. فقولهم: إن الآية الفلانية « نزلت بسبب كذا » لا يعني بالضرورة أن الأمر كذلك بالفعل، كل ما هناك أن الآية قد تجد ما يعين على فهمها في هذه الحادثة أو تلك[١].. إن أسباب النزول، كما هي مدونة في التفاسير أو في الكتب الخاصة بها أو في كتب « علوم القرآن » تحمل الباحث الناقد على الشك في مصداقية كثير منها[٢].. وإن من مكامن الطعن في روايات « أسباب النزول »: ضعف، وسهولة الوضع، والزيادة والنقصان، والاهتمام بالغريب العجيب، وانتزاع آيات أو أجزاء منها من السياق الذي يعطيها معنًى، والإطار العام الذي تندرج تحته.. »[٣].

ثم يصل الجابري إلى القطع بأن:

« أسباب النزول هي في نهاية الأمر روايات آحاد، وأكثرها ظنون وتخمينات »[٤].

---

(١) تفهيم القرآن، القسم الثاني (ص٢٨٣).
(٢) المرجع السابق، القسم الثالث (ص٣٧١).
(٣) المرجع السابق (ص٣٧٩).
(٤) المرجع السابق (ص١٠٩).

هكذا نقض الجابري غزله.. وحكم على أن الأساس الذي أقام عليه « مشروعه - البدعة » لا يعدو أن يكون ضربًا من « الظنون والتخمينات »!..

وهكذا جمعنا من نصوص « الحداثي - العقلاني » ما يكوِّن مقالًا في نقض الأساس الذي بنى عليه مشروعه الكبير: تفهيم القرآن وتفسيره الواضح حسب ترتيب النزول..

لقد نقض الرجل غزله.. وحكم هو على أن الأساس الذي بنى عليه « بدعته »: روايات آحاد، لا تعدو الظنون والتخمينات عن أسباب نزول ما ندر من آيات القرآن الكريم!.

* * *



٣

أخطاء .. لا خطايا

في ملاحظاتنا على ما كتبه الدكتور الجابري عن القرآن الكريم - تعريفًا وتفسيرًا - ميزنا بين ما نعده من:

١ - **الأخطاء**، التي من الوارد أن يقع فيها المفكر المسلم، ومن ثم يدور معه حولها الحوار.

٢ - **والخطايا الفكرية**، التي يُسْتغرب أن يسقط فيها المفكر المسلم.. بل وحتى المنصفون من غير المسلمين.

وفي هذا القسم من هذه الدراسة نتناول الحوار مع الأفكار الخاطئة التي نحسب أن الجابري - عليه رحمة اللَّه - قد وقع فيها:

(١)

وأول هذه الأخطاء: هو تطبيقه منهاج الوضعية المنطقية الأوربية في النظر إلى الوحي والدين والإيمان؛ ذلك المنهاج الذي تصور أصحابه أن للفكر غرفًا مغلقة.. فجعلوا للوحي والدين والإيمان غرفة مغلقة لا يدخلها العقل والعلم، إذ لا علاقة – بزعمهم – بينهما.. فللإيمان معايير هي التسليم والاستسلام، وللعقل معايير هي النظر والبرهان.. أي أن الوحي والدين والإيمان – وفق هذا المنهاج – لا علاقة لهما بالعقل والبرهان.

وانطلاقًا من هذا المنهاج الوضعي، قال الجابري:

« إن الوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان، وليس إلى ميدان البحث والبرهان »[1].

ولو أن الجابري قد انطلق من « تميز » الإسلام، و « تميز » الإيمان الإسلامي لما استخدم هذا المنهاج الوضعي المادي في الحكم على الوحي – القرآن – .. ذلك أن هذا الموقف الغربي الذي تبناه الجابري، هو ثمرة لذلك التناقض الذي عرفه الفكر التنويري الحداثي الغربي.. التناقض بين العقل وبين « النقل.. الوحي »، وهو تناقض غريب عن التميّز الإسلامي والخصوصية الإسلامية في هذا الميدان..

---

(١) في التعريف بالقرآن: هامش (٤)، (ص ٢٢).

فمقابل العقل ونقيضه في الإسلام هو الجنون، وليس النقل والوحي!.

والنقل الإسلامي - الوحي - هو معجزة عقلية، جاءت لتحتكم إلى العقل، لا لتدهش العقل - كما كان الحال مع المعجزات المادية، في الرسالات السابقة على رسالة الإسلام -.. فالقرآن يستنفر العقل، ويحتكم إليه، بينما المعجزات المادية تدهش العقل فتشله عن التفكير وعن استخدام البرهان.

ولهذه الحقيقة.. حقيقة عقلانية « الوحي الإسلامي » كان نداء « البرهان القرآني » للآخرين: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف: ٤]...

وإذا كان جوهر الدين الإسلامي، ونقطة البدء فيه هي الإيمان بالله ﷻ فإن طريق هذا الإيمان - في الإسلام - هو العقل، والنظر العقلي وليس التسليم.. والحكمة الشعبية القائلة: « ربنا عرفوه بالعقل » هي التعبير الأدق عن موقف الفلسفة الإسلامية في طريق معرفة الله، والإيمان بوجوده وبصفات الجلال والكمال والجمال التي يتصف بها سبحانه.. ذلك أن العقل يتأمل المصنوع فيدرك - بالبرهان العقلي - أن هناك صانعًا لهذا المصنوع.. وينظر ويتفكر ويتدبر في هذا

الإبداع المبثوث في الكون، فيدرك - بالبرهان العقلي - أن هناك مبدعًا لهذا الإبداع.. ومن هنا قال فلاسفة الإسلام - انطلاقًا من الوحي القرآني -: إن أول واجب على الإنسان هو النظر، الذي تكرر الحديث عن فريضته في القرآن الكريم: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [فاطر: ٤٤].. إلخ.. إلخ..

ولهذه الحقيقة - التي تجاهلها الجابري - والتي يتجاهلها كل الذين ينظرون للوحي القرآني والإيمان الإسلامي بمنظار الفلسفة الوضعية الغربية، جاء الحديث عن العقل ومكانته وسلطانه وحاكميته في الوحي القرآني - باللفظ - في تسعة وأربعين موضعًا.. وجاء الحديث عن المصطلحات المرادفة، والمكونة لمنظومة مصطلحات العقلانية - الإسلامية - مثل «القلب» و«اللب» و«النهى» و«الفكر» ومشتقاته - و«التدبر» و«الاعتبار» و«الحكمة».. إلخ.. في نحو (٢٦٧) موضعًا[1].

وعبَّر التعبير القرآني عن مصطلحات العقلانية الإسلامية تعبيرًا لفظيًا مباشرًا، نجد سور القرآن الكريم وآياته مليئة بالاستدلالات العقلية: ﴿ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ

---

(١) انظر كتابنا: مقام العقل في الإسلام (ص١٠ - ١٧)، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (٢٠٠٧م).

يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]، ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]..

ولهذه الحقيقة - حقيقة عقلانية الإيمان الإسلامي - قال الإمام الحسن البصري [٢١ - ١٠٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م]:

« ما تم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع اللّـه ﷻ امرأ عقلًا إلا استنقذه به يومًا ما »[١].

وقال الحارث المحاسبي (١٦٥- ٢٤٣هـ/ ٧٨١ - ٨٥٧م):

« بالعقل عرف الخلقُ اللّـه، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم »[٢].

وقال الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ/ ٩٧٤ - ١٠٥٨م):

« إن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول - [أصول الدين] - إذ ليس تُعرف الأصول إلا بحجج العقول »[٣].

وقال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ/ ١١٠٨م):

« للّـه ﷻ في خلقه رسولان: أحدهما من الباطن، وهو

---

(١) مقام العقل في الإسلام (ص٢٨).

(٢) الحارث المحاسبي: مائية العقل وحقيقة معناه (ص ٢٠٨)، تحقيق: د. حسين القوتلي، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٨م).

(٣) الماوردي: أدب القاضي (١/ ٢٧٤)، طبعة بغداد، سنة (١٩٧١م).

العقل. والثاني: من الظاهر وهو الرسول.. »[١].

وقال ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ/ ١١٢٦ - ١١٩٨ م]:

« إن الحكمة هي صاحبة الشريعة، والأخت الرضيعة، وهما المصطحبتان بالطبع، المتحابتان بالجوهر والغريزة.. »[٢].

وقال الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩-١٩٠٥م]:

« .. فاللّـه يخاطب في كتابه الفكر والعقل والعلم بدون قيد ولا حد. فالقرآن قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم، فهو معجزة عُرضت على العقل، وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في أنحائها، ونشر ما انطوى في أثنائها.

فالإسلام لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي، والفكر الإنساني الذي يجري على نظامه الفطري، فلا يدهشك بخارق للعادة، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية، ولا يقطع حركة فكرك بصيحة إلهية.

والمرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه واقتنع

---

(١) الراغب الأصفهاني: كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص ٢٠٧)، تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٧م).

(٢) ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال (ص٢٢)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة (١٩٨٣م).

به.. »[١].

وحتى السلفية - التي يجهل حقيقتها كثير من أسرى الحداثة الغربية.. ويحكمون على أعلامها بمجافاة العقلانية - بتعميم وإطلاق - يقول فيلسوفها ومجددها شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م]:

« إن ما عرف بصريح العقل لا يُتصوَّر أن يُعارضه منقولٌ صحيح قط.. وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة شبهات فاسدة يُعلم بالعقل بطلانها، بل يُعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع. وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار، كمسائل التوحيد والصفات ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك.

ووجدت ما يُعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يُقال إنه يخالفه إما حديث موضوع أو دلالة ضعيفة فلا يصلح أن يكون دليلًا لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

ونحن نعلم أن الرسل لا يخبرون بمحالات العقول، بل يخبرون بمجازات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته.. »[٢].

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣ / ٢٨٠ - ٢٨٣)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م).

(٢) ابن تيمية: بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (١ / ٨٣)،

والقول كلما كان أفسد في الشرع كان أفسد في العقل، فالحق لا يتناقض، والرسل إنما أخبرت بحق، والله فطر عباده على معرفة الحق، والرسل بُعثت بتكميل الفطرة لا بتغيير الفطرة.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣]، فأخبر أنه سيريهم الآيات الأفقية والنفسية المبينة؛ لأن القرآن الذي أخبر به عباده حق، فتتطابق الدلالة البرهانية القرآنية والبرهانية العيانية، ويتصادق موجب الشرع المنقول والنظر المعقول..[١] ».

وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/ ١٠٥٨ - ١١١١م) - الذي يتهمه المتغربون بمعاداة الفلسفة والعقلانية - هو القائل:

« إن مثال العقل: البصر السليم عن الآفات والآذاء. ومثال القرآن: الشمس المنتشرة الضياء. فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء المستغني بأحدهما عن الآخرين في غمار الأغبياء، فالمُعرض عن العقل مكتفيًا بنور القرآن مثاله: المتعرض لنور الشمس مغمضًا للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور[٢]... إن العقل أولى باسم النور من العين بل

= طبعة القاهرة، سنة (١٣٢١هـ).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/ ٨٢)، طبعة القاهرة، سنة (١٣٢١هـ).

(٢) الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢٢٣)، طبعة صبيح، القاهرة.

بينهما من التفاوت ما يصح أن يقال معه إنه أولى، بل الحق أنه يستحق الاسم دونها[١] .. وما قضى العقل باستحالته فيجب فيه تأويل ما ورد السمع به، ولا يُتصور أن يشمل السمع على قاطع مخالف للمعقول[٢].. والوحي الإلهي والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل »[٣].

بل إن الإيمان الإسلامي لا يتأسس فقط على « النظر ».. بل وعلى « الشك المنهجي » أيضًا.. وبعبارة حجة الإسلام الغزالي:

« .. فإن الشكوك هي الموصلة إلى الحق. فمن لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال »[٤].

هكذا اجتمعت تيارات الفكر الإسلامي على تأسيس الإيمان الإسلامي على صريح المعقول، الشاهد على صدق صحيح المنقول.

* * *

ومن خارج إطار الإسلام، بهرت عقلانية الإيمان

---

(١) الغزالي: مشكاة الأنوار (ص٣٦)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٧م).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٢٢).

(٣) الغزالي: المضنون به على غير أهله (ص٣٤٥)، طبعة مكتبة الجندي، ضمن مجموعة، القاهرة.

(٤) الغزالي: ميزان العمل (ص ١٦)، طبعة المطبعة العربية، القاهرة.

الإسلامي العديد من علماء الحضارة الغربية، الذين درسوا الإسلام والنصرانية، فشهدوا لعقلانية الإسلام.. بل وشهدوا أن هذه العقلانية الإسلامية كانت السر في سرعة انتشار الإسلام. ومن هؤلاء العلماء المستشرق الفرنسي البروفسور «إدوارد مونتيه» [١٨٥٦ - ١٩٢٧م] - الذي ترجم القرآن إلى الفرنسية - والذي قال عن عقلانية الإسلام:

« إن الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي Rationolism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على الإسلام كامل الانطباق.

إن لدين محمد كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل..

إن الإيمان بالله والآخرة - في الإسلام - يستقران في نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن، وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي - على وجه التحقيق - من أظهر القوى الفعالة، في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام..»[1].

---

(١) آرنولد - سير توماس -: الدعوة إلى الإسلام (ص ٨٩- ٩١)، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٠م).

هذا هو مقام العقل في الإيمان الإسلامي.. مقام الأصل الذي تقوم عليه كل الأصول.. ومقام القاضي والحكم.. ولأن معرفة اللّـه ﷻ - التي هي لب الدين ونقطة البدء فيه - إنما طريقها العقل - « ربنا عرفوه بالعقل » - كانت قراءة كتاب الكون أولى الفرائض التي نزل بها الوحي الإلهي على قلب رسول الإسلام ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]..

فالقراءة والنظر والتدبر والتفكر في كتاب الكون والخلق، هي السبيل للإيمان باللّـه، والتدين بدينه، ومن ثم إسلام الوجه للّـه.

ولو أدرك الجابري، وكل الذين ينظرون إلى الإيمان الإسلامي والوحي القرآني بعيون الفلسفة الوضعية الغربية، التي تبلورت في مواجهة « الإيمان الخرافي الكنسي » - لو أدركوا هذه الحقيقة - التي عميت عنها أبصارهم وبصائرهم - لما أقاموا هذه المقابلة البائسة وهذا التناقض الظالم والموهوم بين الإيمان الإسلامي وبين العقل والبرهان.. بل لو قرأوا شهادات العلماء الغربيين الذين فقهوا حقيقة عقلانية الإسلام - من أمثال البروفسور « مونتيه » ونظرائه.. وهم كثيرون - لما ظلوا أسرى للتعميم والإطلاق في محاكمة الأديان - وخاصة الإسلام - بمعايير الفلسفة

الوضعية المادية، التي تبلورت في مواجهة « الكهنوت الخرافي » الذي أدخل أوربا عصور الظلمات!.

ولكنها المفارقة الغريبة.. أن يقول العلامة الفرنسي البرفسور « مونتيه »:

« إن الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية.. وإن الإيمان باللَّـه والآخرة - في الإسلام - يستقران في نفس المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق.. ».

بينما يقول الجابري - سامحه اللَّـه - :

« إن الوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان، وليس إلى ميدان البحث والبرهان »!.

* * *

(٢)

والخطأ الثاني: - الذي وقع فيه الجابري - قد جاء - هو الآخر - ثمرة من ثمرات انطلاقه من « الصورة الخرافية » للدين - في أوربا - تلك التي ثارت عليها فلسفة الأنوار الغربية.. ومن ثم تجاهل الخصوصية الإسلامية في هذا الميدان.

فالجابري - الذي انطلق من النموذج الحضاري الغربي، ومن رؤية الفلسفة الوضعية للوحي والدين - قد عاد - عندما تحدث عن العبادات الإسلامية - إلى مقولة التناقض بين « المنقول » و « المعقول »- وهي المقولة التي فندناها في الرد على خطئه الأول - فجعل العبادات الإسلامية من « المنقول - اللامعقول ».. وليست في متناول العقل.. فقال:

« إن العبادات، في أي دين، ليست في متناول العقل، وما يميز العبادات أنها من المنقول لا من المعقول.. »[1].

ولقد خلط الجابري بين العبادات الإسلامية وبين صورة العبادات - كما آلت إليها - في الشرائع الدينية الأخرى.. ففي المسيحية - الحالية - تحولت كثير من العبادات إلى « أسرار كنسية » لا معقولة، بل مضادة للعقل والتعقل.. حتى

---

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص١١٤).

لقد قال الفيلسوف القديس «أنسيلم» [١٠٣٣- ١١٠٩م]:

«يجب أن تعتقد أولًا بما يعرض على قلبك، وبدون نظر، ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت، فليس الإيمان في حاجة إلى نظر عقل..»[١].

وسادت في اللاهوت الكنسي مقولة:

«إن التجسيد قضية فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية. ولكننا نصدق ونؤمن أن هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولًا»[٢].

وساد في هذا اللاهوت - كذلك - حمل كلمات الإنجيل:

«الحق أقول لكم: لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من هنا إلى هناك، فينتقل، ولا يكون شيء غير ممكن» [متّى، ١٧: ٢٠].

«ولو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذه الجميزة: انقلعي وانغرسي في البحر، فتطيعكم» [لوقا، ١٧: ٦]..

لقد ساد في ذلك «اللاهوت الخرافي» حمل هذه الكلمات على «الحقيقة» بدلًا من «المجاز»!..

وليست هكذا العبادات الإسلامية، التي ظلمها الجابري،

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده (٣/ ٢٧٩).

(٢) د. أحمد شلبي: مقارنة الأديان (٢/ ١٢٤)، طبعة القاهرة.

فأدخلها في إطار اللامعقول.. وإذا كان الإسلام عقيدة وشريعة.. وإذا كانت عقيدته عقلانية ومنطقية، جاءت ثمرة للنظر في الكون.. فإن الشريعة الإسلامية منها المعاملات القائمة على الحِكَم والعلل المعقولة.. وهي تبغيا تحقيق المصالح الشرعية المعتبرة - وهي معقولة -.. ومن هذه الشريعة العبادات وهي - على عكس ما قال الجابري - معقولة كذلك..

○ فالصلاة: - التي هي عماد العبادات الإسلامية - معقولة.. لأنها تبغيا تحقيق المصالح المعقولة، وهي النهي عن الفحشاء والمنكر.. وتحقيق التزكية للنفس الإنسانية بالمعية الإلهية والحضور مع اللّـه ﷻ خمس مرات في اليوم، كي لا تفتر النفس الإنسانية عن هذه المعية الإلهية، وكي لا تضمر التزكية للنفس المسلمة، فتقع فريسة لوحش الاغتراب!.

○ والصيام: هو الآخر عبادة معقولة؛ لأنه - وهو العبادة السرية - التي لا يعرف حقيقتها إلا اللّـه، تفتح القنوات الروحية بين الإنسان وخالقه.. كما أنها تمثل « مدرسة لتربية الإرادة الإنسانية » على الصبر.. والتكافل الاجتماعي، كما تربي هذه العباداتُ الأمةَ على فضيلة « الجماعة .. والجماعية.. والاجتماع »، فتهذب من النزعة الفردية التي إذا زادت كانت طريقًا إلى الطغيان ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]..

○ ومثل ذلك الحج: إلى بيت اللّـه الحرام .. ففيه إنعاش ذاكرة الأمة الخاتمة بإحياء مناسك ملة أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام رمزًا لوحدة الدين، وفيه إحياء للرباط بين قِبلة الأمة الخاتمة وبين أول بيت وضع للناس في الأرض، أيضًا لإحياء معنى وحدة الدين .. وفيه تجربة دنيوية وروحية ليوم الحشر الأكبر، عندما يتجرد الناس من الدنيا وزخرفها، ويلوذون بالواحد الديان، فيدخلون « المطهر » الذي يخرجون منه وقد تطهروا من الذنوب كيوم ولدتهم أمهاتهم.. وفيه كذلك من المنافع الدنيوية: التعارف بين الأمم والشعوب والقوميات.. والهَدْي الذي يطعم منه الفقراء والمعوزون.. وأيضًا التجارات التي تمثل سوقًا مشتركة بين بلاد الإسلام..

○ أما الزكاة: التي تزكي المال وتنميه بالبركات.. والتي تزكي النفس المزكية والتي تحقق التكافل الاجتماعي بين الأغنياء والفقراء، كي تصير الأمة جسدًا واحدًا.. هذه الزكاة لا أظن أن هناك من ينكر مردودها الدنيوي والمادي اللذين تبرز عقلانيتهما ومعقوليتهما لكل الذين يعقلون!.

هذا هو مكان العبادات الإسلامية من العقل والعقلانية والمعقول، ذلك المكان الذي غفل عنه الجابري، عندما نظر إلى هذه العبادات بعيون غربية، لم تر من العبادات الدينية إلا تلك التي مارسها « الكهنوت المسيحي الخرافي » كأسرار

مقدسة، استعصت على العقل العاقل استعصاءً شديدًا.

بل إن الجوانب التعبدية - التي لا يعقلها العقل الإنساني في هذه العبادات الإسلامية؛ لأنها فوق العقل النسبيِّ الإدراك.. وليست مناقضة له، مثل عدد الركعات في كل صلاة.. ومثل تقبيل الحجر الأسود في مناسك الحج والعمرة - هي معقولة إذا نظرنا إليها كسبيل لترويض المسلم على طاعة اللّـه ﷻ في أداء الشعائر - التي لها حكمة إلهية، لا يعقلها الإنسان - إذ الطاعة في حد ذاتها عنوان المحبة للّـه.. وهي تجسد هذا المعنى تجسيدًا كبيرًا عندما تكون فيما لايدرك الإنسان حكمته وعلته.. فمردودها «النفعي» - إذا جاز التعبير - متحقق.. ثم إنها - في العبادات الإسلامية - «هامش» يؤدي هذه الوظيفة النافعة.. بينما العبادات الإسلامية - في جملتها - واضحة حكمها وعللها.. قائمة على العقل والمعقول.

* * *

(٣)

أما الخطأ الثالث: الذي وقع فيه الجابري، فلقد جاء في حديثه عن « التحسين والتقبيح بالعقل » إذ أطلق القول بنفي ذلك التحسين والتقبيح بالعقل عن الحنابلة - هكذا بتعميم وإطلاق - فقال:

« وأما الحنابلة فيقولون: إن وجوب النظر والاستدلال لمعرفة اللّه أمر يُعرف بالسمع وليس بالعقل، إذ لا مجال للعقل عندهم في تحسين شيء من المحسنات ولا تقبيح شيء من المقبحات.. »[(١)].

ويبدو أن الجابري - غفر اللّه له - قد أخذ صورة الحنابلة من أفواه أصدقائه الحداثيين الذين يخوضون حربًا شرسة ضد « المدرسة النجدية »!. ولو أن الرجل قرأ إبداعات فيلسوف السلفية ومجددها شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م] - وهو حنبلي - لعرف أن التحسين والتقبيح بالعقل هو اختيار أكثر مذاهب الإسلام - بمن فيهم الحنابلة - .. لقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

« وأكثر الطوائف على إثبات الحسن والقبح العقليين، وهذا قول الحنفية، ونقلوه أيضًا عن أبي حنيفة [٨٠ - ١٥٠هـ/ ٦٩٩ - ٧٦٧م] نفسه. وهو قول كثير من المالكية والشافعية

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٢١).

والحنابلة، كأبي الحسن التميمي [٣٧١هـ] وأبي الخطاب وغيرهما من أصحاب أحمد [١٦٤ - ٢٤١هـ/ ٧٨٠ - ٨٥٥م] وكأبي علي بن أبي هريرة [٣٤٥هـ] وأبي بكر القفال الشاشي [٣٦٥هـ] وغيرهما من الشافعية، وكذلك من أصحاب مالك [٩٣ - ١٧٩هـ/ ٧١٢ - ٧٩٥م] وكذلك أهل الحديث؛ كأبي نصر السجزي [٤٤٤هـ] وأبي القاسم سعد بن علي الزنجاني [٤٧١هـ] وغيرهما.

بل هؤلاء ذكروا أن نفي ذلك - [التحسين والتقبيح بالعقل] - هو من البدع التي حدثت في الإسلام.. قالوا: وإلا فنفي الحسن والقبح العقليين مطلقًا لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، بل ما يؤخذ من كلام الأئمة والسلف في تعليل الأحكام وبيان حكمة اللَّـه في خلقه وأمره، وبيان ما أمر اللَّـه به من الحسن الذي يُعلم بالعقل، وما في مناهيه من القبح المعلوم بالعقل، ينافي قول النفاة.

والحسن والقبح من أفعال العباد يرجع إلى كون الأفعال نافعة لهم وضارة لهم، وهذا مما لاريب فيه أنه يُعرف بالعقل. ولهذا اختار الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠- ١٢١٠م) - في آخر أمره - أن الحُسن والقُبح العقليين ثابتان في أفعال العباد.

وأما إثبات ذلك في حق اللَّـه تعالى فهو مبني على معنى محبة اللَّـه ورضاه، وغضبه وسخطه، وفرحه بتوبة التائب، ونحو ذلك.

وأما العقل، فأخص صفات العقل عند الإنسان أن يعلم

الإنسان ما ينفعه ويفعله، ويعلم ما يضره فيتركه. والمراد بالحَسَن هو النافع، والمراد بالقبيح هو الضار. فكيف يقال: إن عقل الإنسان لا يميز بين الحسن والقبيح؟. وهل أعظم تفاضل العقلاء إلا بمعرفة هذا من هذا؟.

بل وجنس الناس يميل إلى من يتصف بالصفات الجميلة، وينفر عمن يتصف بالقبائح، فذاك يميل جنسُ الإنسان إلى سمع كلامه ورؤيته، وهذا ينفر عن رؤيته وسمع كلامه..

إن العقل يحب الحق ويلتذ به، ويحب الجميل ويلتذ به، وإن محبة الحمد والشكر والكرم هي من العقليات.. وإن للإنسان قوتين:

قوة علمية، فهي تحب الحق.

وقوة عملية، فهي تحب الجميل.

والجميل هو الحسن، والقبيح ضده..»[1].

هذا هو الكلام النفيس لشيخ الإسلام ابن تيمية، فيلسوف السلفية ومجددها.. وفقيه الحنابلة.. في مقام العقل في التحسين والتقبيح.. وفي أن ذلك هو مذهب «أكثر الطوائف الإسلامية».. وأن القول بغير ذلك بدعة طرأت - في الإسلام - كرد فعل على «الغلو العقلاني» الذي استورد

---

(١) ابن تيمية: كتاب الرد على المنطقيين (ص ٤٢٠ - ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٠ - ٤٣٣)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

« العقلانية اللادينية » بدلًا من عقلانية الإسلام المؤمنة..

ولو أن الجابري - غفر اللّه له - قرأ ووعى هذا التراث الإسلامي لما ظَلَمَ - لا نقول الحنابلة - إنما نقول: لما ظلم الإسلام عندما أقام المقابلات والتناقضات بين الوحي والإيمان والعبادات - في الإسلام - وبين العقل والعقلانية والمعقول.. لكنه التقليد الأعمى للنموذج الحضاري الغربي - « حذوك النَّعْل بالنَّعْل »- هو الذي أوقع الجابري في هذه الأخطاء.

* * *

(٤)

والخطأ الرابع: الذي وقع فيه الجابري هو إقامته التناقض بين التجربة الروحية - وفي القمة منها «التجربة النبوية» - وبين الحس والمحسوس والعقل والمعقول.. وقوله:

«.. وأما التجربة الروحية فهي - على الأقل كما يضعها أصحابها - معاناة مع المطلق، تقع وراء الحس والمحسوس والعقل والمعقول، وغني عن البيان القول بأن تجربة النبوة هي أعلى قمم التجارب الروحية..»[1].

وهذا الخطأ - هو الآخر - ثمرة من ثمرات الانطلاق من الفلسفة الوضعية الغربية - المادية - .. وإلا فإن الحس درجات.. والعقل درجات.. وصاحب التجربة الروحية يحسها ويعيشها - فهي ليست - بالنسبة له - وراء العقل والمعقول - حتى وإن لم يصل غيره إلى هذا المستوى من الحس والتعقل..

وإذا كانت للحس قوانينه.. وللعقل قوانينه، فإن لما وراءهما قوانينه، التي وإن علت على بعض مستويات الحس والعقل، فإنها ليست مستحيلة لدى الحس والعقل.

ثم.. ألم تكن «تجربة النبوة» مع الوحي - في الاتصال بالمَلَك، واللقاء بين العالمين العلوي والبشري - محسوسة

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٦).

للنبي ﷺ ومعقولة ومتعقلة بالنسبة له؟!.. وألم تكن هذه «التجربة النبوية» مشاهدة - أعراضها - بالحواس، ومعقولة بالنسبة لمن شهدوها وشاهدوها من صحابة رسول اللَّه؟!.

إنه - مرة أخرى - خطأ الجابري، عندما نظر إلى الروحانية الإسلامية بعيون الفلسفة الوضعية المادية الغربية.

* * *

(٥)

والخطأ الخامس: الذي وقع فيه الجابري قد حدث في المقارنة التي عقدها بين القرآن الكريم وبين التوراة والإنجيل.. فلقد سوى بين القرآن وبين التوراة والإنجيل، ولم ير فارقًا بينهما إلا في نزول القرآن باللغة العربية!!.. فقال:

« إذًا لا يتميز القرآن عن حقيقة التوراة والإنجيل لا بمصدره ولا بمحتواه، وإنما يتميز بكونه نزل بلسان عربي مبين »[1].

ولو أننا افترضنا أن الجابري يعني التوراة الحقيقية التي نزلت على موسى عليه السلام والتي لا وجود لها، ولا معرفة للجابري ولا لنا بها، حتى نقارن بينها وبين القرآن، وكذلك الإنجيل الذي جاء به المسيح عليه السلام والذي لا وجود له الآن..

لو افترضنا ذلك، لكان على الجابري أن يدرك تميز القرآن عن توراة موسى بشريعة مغايرة للشريعة التي جاءت بها التوراة لبني إسرائيل.. أما الإنجيل، فلقد أتى « بتعاليم » ولم يأتِ « بشريعة » على الإطلاق؛ لأن المسيح قد اعتمد الناموس الذي جاء به موسى لبني اسرائيل..

كذلك تميز القرآن عن التوراة والإنجيل بالنظم البياني والبلاغي المعجز، فلقد ضم الإعجاز مع الرسالة.. وهذا ما يميزه عن كل الكتب والصحائف التي جاء بها الخالون من المرسلين..

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٩٤).

كما تميز بالشريعة الخاتمة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان..

أما إذا كانت مقارنة الجابري بين القرآن وبين ما بيد اليهود والنصارى اليوم من أسفار العهدين القديم والجديد، فإن تميز القرآن عنهما سيكون في المصدر أيضًا - مع المحتوى- فالقرآن هو وحي اللّه المباشر إلى محمد ﷺ بينما أسفار العهد القديم قد كتبها أحبار اليهود في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد.. أي بعد ثمانية قرون من عصر موسى عليه السلام.. وما لموسى في هذه الأسفار - بشهادات علماء نقد النصوص اليهود - نتف قليلة طغت عليها اللفائف التي جُمعت من الثقافة الشفهية عبر آلاف السنين[1].

وكذلك الحال مع الأناجيل الأربعة، التي كتبت بعد عصر المسيح عليه السلام بمئات السنين.

فخطأ شديد وأكيد وعجيب أن لا يجد الجابري فارقًا يميز القرآن الكريم عن هذه الكتب إلا في عروبة لغة القرآن!.

* * *

---

(١) انظر كتاب: تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور إلى العصر الحديث: تحرير العالم اليهودي زالمان شازار، ترجمة: د. أحمد هويدي، مراجعة وتقديم: د. محمد خليفة حسن، طبعة القاهرة.

(٦)

والخطأ السادس: في مقارنة الجابري بين قصص القرآن عن أنبياء بني إسرائيل وما جاء عن هؤلاء الأنبياء في التوراة.. فلقد أخطأ الجابري عندما حكم بأن القرآن قد وقف عند « حكاية » ما جاء عن هؤلاء الأنبياء في التوراة.. وأنه لم يتميز - في هذا المقام - إلا في « طريقة العرض »!.. فقال:

« إن علاقة القرآن بالتوراة والإنجيل علاقة تصديق بصورة عامة، بل يمكن القول إنها - في مجال القصص - علاقة حكاية، بمعنى أن القرآن يحكي ما ورد في التوراة من أخبار أنبياء بني إسرائيل.

والحق أن الأصالة والإبداع في القرآن - في مجال القصص خاصة - هي في طريقته الخاصة في عرض القصص.. »[١].

وفي هذا النص الذي كتبه الجابري - على قصره - العديد من الأخطاء:

○ فالقرآن قد جاء مصدقًا للتوراة والإنجيل - ولكل الكتب الإلهية السابقة - في التوحيد - الذي هو جوهر دين اللّـه الواحد، عبر النبوات والرسالات - لكنه لا يمكن أن يكون مصدقًا لصورة اللّـه في أسفار العهد القديم - صورة « يهوه » رب الجنود، المتعطش للدماء، والإله الخاص

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٤٢٢، ٤٢٣).

بني اسرائيل! -.. ولا يمكن أن يكون القرآن مصدقًا لصورة الرب في الأناجيل التي كتبها النصارى، والتي تقول عن المسيح عليه السلام إنه الرب « خالق كل شيء، وبه كان كل شيء، وبدونه لم يكن شيء، وهو الأول والآخر، والألف والياء »!..

ثم.. من قال إن القرآن الكريم قد وقف عند « حكاية ما في التوراة من أخبار أنبياء بني إسرائيل »؟..

إن الفارق بين صورة أنبياء بني إسرائيل في القرآن وصورتهم في أسفار العهد القديم هو الفارق بين الثريا والثرى!.. بين ديوان عصمة الأنبياء وتكريمهم وبين مستنقع ازدراء الأنبياء والمرسلين!..

○ فأبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام:

- صورته في التوراة صورة: الذي يخطئ في تقدير أخلاق المصريين - عند دخوله إلى بلادهم - .. والذي يتواطأ مع زوجه سارة على الكذب، وعلى الدياثة.. وإسلام زوجه الجميلة لمن يعاشرها في الحرام.. طمعًا في بقائه حيًا.. وطمعًا في الغنم والبقر والحمير والجمال والعبيد يعطيها له فرعون مصر لقاء زوجته الجميلة!! [تكوين، ١٢: ١٠ - ٢٠]..

- بينما صورته في القرآن الكريم هي صورة: أبي الأنبياء.. الأمة .. الإمام.. الصالح.. المصطفى في الدنيا والآخرة..

والأواب.. الحليم.. المنيب.. الصدِّيق.. خليل الرحمن.. والأسوة الحسنة.. والناظر في الملكوت ليقيم الدليل العقلي على التوحيد.. ومحطم الأصنام.. ومطهر البيت الحرام، ورافع قواعده.. والذي صارت النار بردًا وسلامًا عليه.. والممتثل لأمر ربه أن يذبح ولده البكر الحبيب والوحيد.. والذي عليه سلام اللّـه..

○ وكذلك الحال مع نبي اللّـه لوط ﷺ:

- فصورته في العهد القديم صورة الذي سكر وزنى بابنتيه [تكوين، ٩: ٣٠ - ٣٨].

- بينما صورته في القرآن الكريم هي صورة العبد الصالح.. صاحب العلم والحكمة.. والناهي عن الفحشاء والمنكر .. والمتطهر.. الذي نجاه اللّـه.

○ وكذلك الحال مع نبي اللّـه داود ﷺ:

- فصورته في العهد القديم هي صورة الفاسق المتلصص على عورات الناس.. والزاني.. والمتآمر.. والقاتل والمغتصب للنساء والزوجات [صموئيل الثاني، ١١: ١ - ٢٦].

- بينما صورته في القرآن الكريم هي صورة الخليفة الأوَّاب.. الذي سبَّحت معه الطير والجبال.. وصاحب الزلفى وحسن المئاب.

○ وكذلك الحال مع نبي اللّـه سليمان: ﷺ :

- فصورته في العهد القديم هي صورة زير النساء.. الخارج عن أوامر الرب.. الباني النُّصُب لعبادة الأوثان من دون اللّـه، والعابد لهذه الأوثان [الملوك الأول، ١١: ١ - ١١].

- بينما صورته في القرآن الكريم هي صورة صاحب العلم والفضل الذي علمه اللّـه منطق الطير.. وأعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده.. والشاكر لأنعم اللّـه..

وهكذا نجد أنفسنا أمام مدرستين في قصص الأنبياء:

- مدرسة ازدراء الأنبياء في العهد القديم..

- ومدرسة عصمة الأنبياء في القرآن الكريم.. عصمتهم فيما يبلغون عن اللّـه مما ينفر أو يشين.. وذلك انطلاقًا من عقيدة التنزيه للذات الإلهية عن العبثية، ومن وجوب الحكمة والكمال لذاته ﷻ فيما يصطفي من الأنبياء والمرسلين..

بينما العهد القديم هو مدرسة الازدراء للأنبياء والمرسلين التي تجردهم من العصمة، وتصفهم بالأوصاف الرديئة التي يتنزه عنها الأسوياء من الناس، فضلًا عن المختارين المصطفين من الأنبياء المرسلين، الذين صنعهم اللّـه على عينه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته.

فكيف يجوز لعاقل - مثل الجابري - أن يسوي بين القرآن الكريم وكتب اليهود والنصارى.. ويقول: إن القرآن - في

مجال القصص- قد وقف عند حكاية ما ورد في التوراة من أخبار أنبياء بني إسرائيل؟![1].

* * *

(١) انظر كتابنا: الأنبياء في القرآن الكريم والكتاب المقدس، طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

(٧)

والخطأ السابع: هو اختيار الجابري - ككثير من الذين يتعلقون بالعقلانية المادية اللادينية -.. اختياره في قضية الإسراء والمعراج، حدوث ذلك في رؤية منامية، وليس في رحلة حقيقية معجزة.. وفي هذا يقول الجابري:

« والذي نختاره أن الإسراء والمعراج قد حدثا على صورة رؤيا منامية »[١].

صحيح أن كثيرين قد اختاروا هذا الرأي.. وصحيح - كذلك - أنهم قد استندوا إلى روايات منسوبة إلى أم المؤمنين عائشة [٩ق هـ - ٥٨هـ/ ٦١٣ - ٦٧٨م] - رضي اللّه عنها -.. وإلى الحسن البصري [٢١ - ١٠٠هـ/ ٦٤٢ - ٧٢٨م] وابن إسحاق (١٥١هـ/ ٧٦٨م).. لكن الجابري وهؤلاء الذين يستندون إلى هذه « الرواية » قد غابت عنهم - رغم تعلقهم بالعقلانية - « الدراية ».. ذلك أن الإسراء لو حدث في رؤية منامية لما كذبته قريش، ولما حدثت حياله الضجة التي حدثت.. ولما مَثَّل « فتنة » ارتد بسببها عدد من المسلمين عن التصديق برسول اللّه ﷺ وبدين الإسلام.

فحتى أبو جهل وأبو لهب، يمكن لأي منهما - ولغيرهما - أن يروا في المنام ما هو أعجب من رحلة الإسراء والمعراج،

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٩٠).

دون أن يثير ذلك ضجة ولا استغرابًا، ودون أن يحدث ابتلاء وفتنة بين الناس.

والجابري يشير إلى هذه الضجة، وهذه الفتنة التي أحدثها إعلان الرسول ﷺ عن حادثة الإسراء والمعراج، فيقول:

« وكانت قريش قد أثارت ضجة كبيرة حول « الإسراء والمعراج » فقالوا:

هل يعقل أن يسافر الإنسان من مكة إلى بيت المقدس، ويعرج إلى السماء ويعود في ليلة واحدة؟.. وهم كانوا تجارًا يعرفون المسافات!..

وقد ارتد فعلًا بعض من كانوا أسلموا؛ لأن عقولهم لم تصدق ذلك.. »[1].

ونحن نسأل أنصار العقلانية المادية، الذين يدفعهم - في الحقيقة - النفور من التصديق بالإعجاز والمعجزات، إلى القول بأن الإسراء والمعراج قد حدث في رؤية منامية.. نسألهم:

- وهل يعقل أن تثير الرؤية المنامية - مهما حوت من الغرائب - « ضجة كبيرة » في صفوف الشرك.. و « فتنة » يرتد بسببها بعض المسلمين عن دين الإسلام؟!.

إنه مأزق العقلانية المادية.. الذي دفع أصحابه - ومنهم

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٩٧).

الجابري - إلى ترجيح «الرواية» والتنكر «للدراية»!.. وإلى السقوط في اللاعقلانية في تفسير وقائع التاريخ!..

* * *

(٨)

والخطأ الثامن: هو ادعاء الجابري أن مصطلح « الإسلام » و« المسلمين » لم يطلق على المؤمنين برسول اللـه ﷺ إلا في وقت متأخر نسبيًا من تاريخ البعثة والدعوة، وبعد أن أصبح هؤلاء المؤمنون جماعة تستسلم وتخضع لسلطة النبوة؛ لأن هذا المصطلح - « الإسلام » - يدل على « الخضوع لسلطة جماعة أو دولة ».. وفي هذا الادعاء يقول الجابري:

« إن تكرار فعل أسلم وما اشتق منه (مسلمون - الإسلام.. إلخ) لن نجده إلا في سورة القلم، المتأخرة النزول - (ترتيبها عند الجابري: ٢٥) -.

وإذا نحن بحثنا عن السبب في تأخر استعمال هذا اللفظ في القرآن وجدناه معقولًا تمامًا. فاصطلاح « الإسلام » يعني الاستسلام والخضوع، ويكتسي في الحقل الدلالي العربي الخضوع لسلطة جماعة أو دولة، وهكذا لم يبدأ استعمال هذا اللفظ في القرآن إلا بعد أن صار من كانت تدعوهم قريش أتباع محمد جماعة يجمعها كونها أتباع رئيس معين هو النبي ﷺ من جهة، وانفصالها عن قريش من جهة أخرى. وهكذا، فعندما لم تكن هذه الجماعة قائمة كان الذي يستجيب للدعوة المحمدية يوصف بلفظ « تزكى ».. »[1]!.

---

(١) فهم القرآن، القسم الأول (ص ١٨٠، ١٨١).

نعم!.. هكذا قال الجابري!.. وهكذا فهم هذا الفهم العجيب، الذي ذكره في تفسيره: (فهم القرآن) !..

فهل جَهِلَ الرجل أن الإسلام إنما يعني إسلام الوجه للّـه، والخضوع لسلطانه، وليس « الخضوع لسلطة جماعة أو دولة »؟!..

وهل جَهِلَ أن هذا المعنى للإسلام يجعله عنوانًا على كل من أسلم الوجه للّـه، حتى ولو كان فردًا واحدًا، في شعب من شعاب الجبال؟!..

وهل جهل أن النبي ﷺ كان مسلمًا حتى قبل أن يستجيب لدعوته أحد؛ لأنه كان مسلمًا وجهه للّـه ﷻ ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهل جهل الجابري أن هذا المصطلح - الإسلام - لم يتأخر إطلاقه واستخدامه في الدعوة المحمدية.. لأنه مصطلح قديم قِدَم دين اللّـه الواحد، فالدين عند اللّـه الإسلام.. وكل أنبياء اللّـه ورسله - وكذلك أقوامهم الذين آمنوا بهم - كانوا مسلمين، وكان دينهم الإسلام؛ لأنهم جميعًا قد أسلموا الوجه للّـه، وخضعوا لسلطته وسلطانه؟!

وهل جهل - أيضًا - أن أبا الأنبياء - الخليل إبراهيم ﷺ - قد سمى أمة محمد ﷺ بالمسلمين - في

القرن التاسع عشر قبل الميلاد - .. وليست قريش هي التي سمتهم بهذا الاسم - في القرن السابع للميلاد -؟! ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ [الحج: ٧٨].

وهل جهل الجابري أن آيات القرآن الكريم تصف رسول الإسلام ﷺ بأنه أول المسلمين ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وأن بلقيس قالت - في القرن العاشر قبل الميلاد -.. ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل: ٤٤]؟!..

وأن أنبياء إسرائيل كانوا مسلمين ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ﴾ - (التوراة) - ﴿ ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤]..

وحتى فرعون عندما أدركه الغرق.. وعزم على الإيمان - بعد فوات الأوان أعلن أنه مسلم ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠]..

هل جهل الجابري كل ذلك، حتى يدعي أن مصطلح «الإسلام» و«المسلمين» لم يطلق على الذين آمنوا بالدعوة الإسلامية إلا متأخرًا، لأنه لا يطلق إلا على من خضع لدولة أو سلطة جماعة؟!.. بينما آيات القرآن الكريم - الذي فسره الجابري - تستخدم هذا المصطلح - ومشتقاته - فيما يقرب من مائة وخمسين موضعًا، للدلالة على من أسلم وجهه للـه؟!..

(٩)

والخطأ التاسع: هو إنكار الجابري الصدق التاريخي للقصص القرآني!

لقد شهدت الحياة الثقافية والجامعية - بمصر - في النصف الثاني من عقد الأربعينيات بالقرن العشرين معركة فكرية كبرى حول الرسالة الجامعية التي أعدها المرحوم الدكتور محمد أحمد خلف اللّـه حول (القصص الفني في القرآن الكريم).. ذلك أن خلف اللّـه قد اعتبر هذا القصص القرآني قصصًا فنيًا، سيق للعبرة والعظة، وليست له ولا لوقائعه مصداقية تاريخية..

وبعد معركة فكرية - وصلت ذيلوها إلى البرلمان المصري - أُوقفت الرسالة، ومُنعت مناقشتها وإجازتها.. فلجأ خلف اللّـه إلى موضوع آخر نال به درجة الدكتوراه..

وبعد نحو ستين عامًا جاء الجابري ليقول بما انتهى إليه خلف اللّـه حول قصص القرآن الكريم.. فأعلن:

« .. ومع أننا لا نختلف كثيرًا حول النتائج التي وصل إليها د. محمد خلف اللّـه في (الفن القصصي في القرآن)، إلا أن طريقنا إليها يختلف عن طريق خلف اللّـه.. »![1].

المهم أن الجابري - مثل خلف اللّـه - قد أنكر الصدق

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٥٩).

التاريخي للقصص القرآني.. وقال:

« وفي نظرنا: فإن الصدق في القصص القرآني، سواء تعلق الأمر بالمثل أو بالقصة، لا يلتمس في مطابقة أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصدق فيه مرجعه مخيال المستمع ومعهوده، فلا معنى لطرح مسألة الحقيقة التاريخية.. إن الحقيقة التي يطرحها القصص القرآني هي العبرة، هي الدرس الذي يجب استخلاصه.. »[١].

وبعد أن ناقض الجابري نفسه - في ذات الصفحة - فقال:

« إن القصص القرآني ليس قصصًا خياليًا بل هو قصص يتحدث عن وقائع « تاريخية » تدخل ضمن معهود العرب.. »[٢].

عاد فجازف مجازفة لا أظن أن أحدًا من الذين جازفوا في الحديث عن القصص القرآني قد سبقه إليها..

لقد أنكر الرجل أن يكون الحوار الذي دار بين الأنبياء وأتباعهم أو بينهم وبين خصومهم قد حدث أصلًا؟!.. وشبهه بالحوار الذي لم يقع بعد بين أهل الجنة وأهل النار - اللتين لم يخلقا بعد - .. فهو حوار لم يسبق له الحدوث.. وفي هذه المجازفة قال الجابري:

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٥٩).

« .. أما ما يجري في هذا القصص من حوار بين الأنبياء وأتباعهم من جهة، وخصومهم من جهة أخرى، فهو في نظرنا كالحوار الذي يجري في القرآن بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، في وقت لم تقم فيه القيامة بعد.. »[١].

ومعنى هذا الذي قاله الجابري:

أن حوار نوح ﷺ مع قومه لم يحدث.. وأن حوار إبراهيم ﷺ مع قومه لم يحدث.. وأن حوار لوط ﷺ مع قومه لم يحدث.. وأن حوار موسى ﷺ مع فرعون ومع السحرة ومع بني إسرائيل لم يحدث.. وأن حوار المسيح ﷺ مع بني إسرائيل لم يحدث..

وإذا لم يكن حدث شيء من هذه المحاورات بين كل الرسل السابقين - عليهم السلام - وبين أقوامهم.. وإذا كانت تلك المحاورات التي قصَّها القرآن الكريم بين هؤلاء الرسل وبين أقوامهم هي كالمحاورات التي لم تقع بين أهل الجنة وأهل النار - اللتين لم تخلقا بعد - فإن معنى هذا أننا أمام سؤال:

- إذًا ما الذي حدث بين هؤلاء المرسلين وبين أقوامهم؟!.. هل هو الصمت التاريخي المطبق؟!..

إن الرجل لا ينفي فقط « الصدق التاريخي » عن هذه

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٧٠).

الحوارات التي حكاها القرآن الكريم، ليقول - كما سبق وقال-: «إن الصدق فيها مرجعه مخيال المستمع ومعهوده»!.. وإنما ينفي حدوث الحوارات من الأساس!!..

ولولا مندوحة «التأويل العبثي والفاسد» لقال قارئ الجابري: إنه قد أوشك - والعياذ بالله - على تكذيب القرآن الكريم!..

❊ ❊ ❊

تلك نماذج من الأخطاء التي وقع فيها المرحوم الجابري في مشروعه للتعريف والتفسير للقرآن الكريم.. وهي «أخطاء» قد يدرجها البعض - أو يدرج بعضها - في عداد «الخطايا»..

لكننا آثرنا وضعها في باب «الأخطاء».. تمييزًا لها عن «الخطايا الكارثية» التي سقط الجابري في مستنقعها.. عندما تحدث عن الرسول ﷺ وعن القرآن الكريم..

❊ ❊ ❊

٤

خطايا.. لا مُجرد أخطاء

(١)

أولى الخطايا: التي سقط فيها الدكتور محمد عابد الجابري - عفا اللّه عنه - هي تلك الصورة الشاذة التي رسمها لرسول اللّه، محمد بن عبد اللّه ﷺ..

فلقد ارتكب الجابري العديدَ من الخطايا في تصويره لخاتم الأنبياء والمرسلين..

○ لقد بدأ بإنكار عصمة الأنبياء والمرسلين - مع أن هذه العصمة هي عقيدة من كبريات عقائد الإيمان الديني، النابعة من الحكمة الإلهية في اصطفاء الأنبياء والمرسلين..

لكن الجابري قد أنكر عقيدة العصمة، معتبرًا إياها مجرد « فكرة مسبقة » من أفكار « المذاهب الإسلامية » اكتسبت عند أصحاب هذه المذاهب طابعًا سياسيًا.. وبنص عبارته:

« ما نريد تأكيده هنا هو ضرورة التفكير في آي الذكر الحكيم بعيدًا عن الأفكار المسبقة، مثل فكرة العصمة التي اكتسبت طابعًا مذهبيًا سياسيًا في الفكر الإسلامي »[١].

والخطير - بل الأخطر - أن إنكار الجابري لعصمة

---

(١) فهم القرآن، القسم الأول (ص ٤٧).

الرسول، المقصد منه هو نفي عصمة القرآن الكريم عن التغيير والتبديل !!.. كما ستشهد عليه نصوصه بالسقوط في المزيد والمزيد من الخطايا!..

○ ولأن اللّـه ﷻ قد قال في محكم الذكر الحكيم أنه سيُقْرِئُ رسولَه ﷺ القرآن، وأنه لن ينساه - أي أن اللّـه قد عصمه من النسيان - وجدنا الجابري في تفسيره للقرآن يقول عن آية: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[الأعلى : ٦] .. كلامًا غريبًا وعجيبًا، أراد به نفي العصمة عن الرسول من النسيان، وصولًا إلى التشكيك في حفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل والزيادة والنقصان!.. قال:

« غير ظاهر أن المفعول الثاني لـ ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ هو القرآن .. فالضمير في ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ لا يعود بالضرورة على القرآن ، ولا على شيء معين من أمور الشرع.. »[1].

ولم يقل لنا الجابري على ماذا سيعود ضمير الإقراء الإلهي للرسول إذا لم يعد على « القرآن ولا على أي شيء معين من أمور الشرع »؟!.. وما الذي نزل من السماء، فأقرأه اللّـه لرسوله سوى الوحي والذكر الحكيم، المتضمن « لأمور الشرع »؟!.

ويبدو أن الجابري، الذي كثيرًا ما قال في كتابه هذا -:

---

(١) فهم القرآن، القسم الأول (ص ٤٦).

« وتقول مصادرنا » دون أن يذكر لنا أسماء هذه المصادر!! - يبدو أنه قد اغترف كثيرًا من مواقع الشبكة العالمية للمعلومات - « الإنترنت » - التي جمعت الغث والثمين.. والتي تفتقر كثير من موادها إلى التوثيق العلمي، وإلى التحقيق - اغترف الجابري من مواقع « الإنترنت »، دونما تدقيق ولا فحص ولا تحقيق .. فكان « كحاطب الليل »، الذي جمع المادة المليئة بالكثير والكثير من المتناقضات!

فهو - هنا - قد نفى أن يكون الإقراء الإلهي للرسول، المعصوم من النسيان، هو القرآن .. لكنه يقول في مكان آخر - من عمله حول القرآن -:

« قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] - [يقول] -:

فالآية صريحة في أن طريقة قراءة القرآن هي من الله ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ »[١].

فيقطع بأن الإقراء الإلهي للرسول.. وأن المقروء هو القرآن - ناقضًا بذلك ما زعمه من أن الإقراء والمقروء ليس القرآن، ولا أي شيء معين من أمور الشرع!..

○ ويذهب الجابري على هذا الطريق الشاذ إلى حيث

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٨٢).

يدعي على الفِرَق الإسلامية اختلافهم حول عصمة الأنبياء والمرسلين!.. وكذلك الزعم بأن أهل السنة والمعتزلة قد أجمعوا على جواز المعاصي - الصغائر والكبائر - على الأنبياء والمرسلين - مع بعض القيود والتحفظات -!.. وبنص عباراته:

« إن اهتمام الفرق الإسلامية كان مركزًا على إثبات نبوة محمد ﷺ وما به تثبت، وعلى ما يميز النبي عن سائر البشر، مثل تلقي الوحي، وكيفية التلقي، واحتمال تعرضه للنسيان، وهل هو معصوم أم غير معصوم؟..

فأهل السنة - كالمعتزلة - يتعاملون مع مفهوم النبي بوصفه يدل على واحد من البشر اختاره اللّـه لهذه المهمة، وبالتالي فهو ليس معصومًا، عصمة كلية، لا عن النسيان ولا عن السهو والخطأ ولا عن المعاصي، الكبائر منها والصغائر، وإن كانوا يصنعون لذلك حدودًا وقيودًا تمنع من المس بعلو شأن النبي وطهارة سلوكه وأمانته، خصوصًا في مرحلة التبليغ عن اللّـه، بحيث ينفون عنه النسيان والسهو والخطأ في هذا المجال، وذلك إبعادًا لشبهة النقص والتغيير عن القرآن »[1].

وفي هذا النص الواحد يدعي الجابري أن الفِرَق الإسلامية - السنة والمعتزلة - لم يقولوا بعصمة الأنبياء

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١١٥).

عن النسيان والسهو والخطأ والمعاصي - الكبائر منها والصغائر - ثم يقول - في ذات النص - إنهم نفوا عن النبي السهو والنسيان والخطأ في التبليغ؛ أي أنهم أثبتوا العصمة ولم يختلفوا فيها - كما سبق وادعى -.. لكنه ظل على ادعائه أن هذه الفرق قد أجازت المعاصي - الكبائر منها والصغائر - على الأنبياء والمرسلين!.. وهو ما سيأتي دحضه.. ودحض ما ذهب إليه الجابري من أن العصمة هي مجرد « فكرة مذهبية مسبقة.. اكتسبت طابعًا سياسيًا».

سيأتي دحض كل ذلك، بنصوص أئمة كل مذاهب فرق الإسلام.

○ ولقد رتب الجابري على نفيه عقيدة عصمة الرسول ﷺ ادعاء أن النبي « كان ينتابه الشعور بالفشل في أداء مهمته »!.. بسبب إعراض ملأ قريش عن دعوته!.. وأنه كان « يشعر بالأسى على نفسه »!.. بسبب هذا الإعراض!.. وبنص عبارات الجابري:

« .. ولقد كان طبيعيًا تمامًا أن يعتري محمدًا - عليه الصلاة والسلام - ما يعتري البشر - وهو واحد منهم - من أحوال نفسية وتمنيات من هذا النوع أو ذاك، وكان من الطبيعي كذلك أن ينتابه الأسى والأسف من حين لآخر بسبب إصرار قومه على الإعراض عن دعوته..

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يحس في بعض الأحيان.. بما

يشبه الشعور بالفشل في مهمته![1].. والرسول بشر، فكان لا بد أن يقلق ويتخوف من أن يؤدي إصرار قريش على عدم الاستجابة لدعوته إلى فشله في تبليغ رسالته.. ولقد كان النبي- حين نزول آية الشعراء - في حالة نفسية قلقة، بسبب إعراض قريش عن الاستجابة .. »[2]!.

والجابري - بهذا التصوير الشاذ لرسول اللّـه ﷺ - قد وقف - فقط - عند بشرية الرسول.. فحكم بأنه « من الطبيعي تمامًا أن يعتريه ما يعتري البشر - وهو واحد منهم - من أحوال نفسية »..

وتجاهل الجابري أن الرسول ﷺ بشر، ولكنه بشر يوحى إليه.. هو بشر، لكنه قد اصطفاه اللّـه واختاره وأعده وصنعه على عينه، واستخلصه.. وأنه قد صار - بذلك - حلقة الوصل بين العالم البشري والعالم العلوي.. صار عقل العالم البشري، المتلقي عن السماء.. صار - بعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ / ١٨٤٩-١٩٠٥م] « بمنزلة العقل من الشخص.. وأصبح في المرتبة العلوية على نسبة من العالَمَيْن، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهو في الدنيا كأنه ليس من أهلها، وهو رسول الآخرة في لباس من ليس من سكانها »!.

---

(١) فهم القرآن، القسم الأول (ص ١٢٦، ١٢٧).
(٢) المرجع السابق، القسم الأول (ص ٣٢١).

ولذلك، فإن شعور الرسول ﷺ بالقلق لم يكن خوفًا من فشله في تبليغ رسالته - كما ادعى الجابري - وإنما كان قلقًا وأسى وإشفاقًا على مصير المكذّبين.. لأنه ﷺ كان واثقًا الثقة المطلقة من صدق الوعد الإلهي في تبليغ رسالته، وفي انتصار الإسلام وظهوره على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون.. ثم هل يشعر بالفشل من ثبّت اللّه فؤاده بتنجيم نزول القرآن عليه منجمًا، ليدوم هذا التثبيت؟!.

ثم إن هذا الملأ من قريش، الذين كذّبوا وعاندوا، وذهبوا في التكذيب والمعاندة كل مذهب كان الرسول ﷺ على علم يقيني بأنهم لن يؤمنوا، فلم تكن هناك أوهام حول موقفهم ومصيرهم.. لقد أخبره ربه - سبحانه - منذ البداية:

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: ٧ - ١٠].

فلم تكن لديه ﷺ آمال قد خابت في إيمان هؤلاء.. ومن ثم فلم يكن هناك قلق من الفشل في نجاح رسالته - عليه الصلاة والسلام -..

ثم إن مولاه ﷻ قد حدد له - منذ البداية - أن مهمته هي البلاغ .. وأنه لن يهدي من أحب.. ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [الشورى: ٤٨]، هكذا حدد القرآن الكريم - منذ البداية.. وفي السور المكية - مهمة الرسول.. ومصير هؤلاء المكذبين المعاندين الجاحدين من ملأ قريش وعتاة المجرمين فيها..

ولقد كان حريًا بالجابري - كمسلم - أن يسأل نفسه:

- هل يتطرق الشعور بالفشل في أداء رسالته إلى من قطع ربه الوعد له فقال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٥]، كما قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].. فقطع بعصمته في بلاغ رسالته.. وبالحكم على الكافرين به بالضلال..

- وهل يتطرق الفشل إلى من نزلت عليه المعوذتان، فكان متحصنًا بالله، ولائذًا به.. ومتعوذًا به من شياطين الإنس والجان؟!.

- وهل يتطرق الشعور بالفشل إلى من رفض، وهو في قمة الاستضعاف.. والحصار.. والإيذاء - رفض المساومة.. والملك.. والسيادة.. والمال.. والجاه، وقال لعمه أبي طالب - عندما عرض عليه وطلب منه شيئًا من مهادنة الكفار -:

« والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على

أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه.. »!.. فرفع سقف الفداء إلى القمة.. قمة إمام أولي العزم.. وهو الذي ناجى ربه، بعد أن صدَّه مشركو الطائف، وأهانوه، وأغروا به سفهاءهم فحصبوه حتى سالت دماؤه الزكية!.. فاشتكى إلى ربه ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس.. لكنه - وهو في قمة الاستضعاف - أعلن إصراره على عدم المبالاة بهذا الذي صنعوه - ويصنعونه - به من الحصار.. والإقصاء.. والإيذاء، أعلن إصراره على المضي لتحقيق وعد اللّه بالنصر المبين.. فقال - مناجيًا مولاه -: « إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي »!..

قالها، وهو على يقين من الرضى الإلهي، الذي يتزايد ويتضاعف مع تزايد المعاناة والابتلاء - وهما من سنن اللّه في النبوات والرسالات - قَص قصصهما عليه القرآن الكريم..

لقد صنعه اللّه على عينه، وأعده للنهوض بتغيير العالم - دينه ودنياه - وتبديل معنى الحضارة ومحتواها ومقاصدها.. وبتحويل مجرى التاريخ.. وكشف له ربه - منذ البداية - أنه قد أعده ليحمل أثقل الأمانات ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥].. وأنزل عليه القرآن، الذي مثل الجهاد الكبير ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

- هل يتطرق الشعور بالفشل إلى من كان - وهو في قمة

الاستضعاف - على يقين جازم بأن اللّـه ناصره، ومظهر دينه على الدين كله.. وأن القلة التي آمنت به سترث عروش الأكاسرة والقياصرة، فقال للملأ من قريش:

« هل أنتم مُعطيّ كلمة إن أنتم تكلمتم بها - [كلمة التوحيد] - ملكتم بها العرب، ودانت لكم بها العجم »؟!.

- هل يتطرق الشعور بالفشل إلى إمام أولي العزم من الرسل؟!.. الذي أنزل اللّـه عليه القرآن منجمًا ليثبت به فؤاده تثبيتًا دائمًا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].

أم أن القول بذلك هو لون بائس من « الفشل الفكري » الذي يعاني منه المحرومون من فقه الحكمة الإلهية في الاصطفاء للأنبياء والمرسلين؟!.

* * *

وإذا كان الجابري - سامحه اللّـه - قد سقط في هذه الدعاوى، التي نسبها إلى رسول اللّـه ﷺ انطلاقًا من نفيه العصمة عنه.. وادعائه أن العصمة هي مجرد « فكرة مذهبية مسبقة »! .. فإن حقائق العلم الديني - في دين اللّـه الواحد - عبر النبوات والرسالات - تقطع بأن العصمة: عقيدة إيمانية، يقتضيها ويشهدها العقل قبل النقل..

○ فلو أن كاتبًا ومفكرًا، وصاحب مشروع فكري - كالجابري مثلًا - أراد أن يوصل « رسالته الفكرية » إلى

الجمهور، لكان حريصًا على أن يصطفي ويختار « الناشر » القادر والمؤتمن على توصيل « رسالته الفكرية » كاملة غير منقوصة.. ولو أن هذا المفكر والمؤلف قد اختار لتوصيل « رسالته الفكرية » من يجوز عليه - أو يتصور منه - النسيان أو التبديل لشيء - ولو يسير - من هذه « الرسالة الفكرية »، لقدح ذلك في حكمة هذا المفكر والمؤلف، وللحقت به شبهة « العبث » و « الإهمال »!..

وكذلك الحال مع أي ملك أو حاكم، يريد إيصال « رسالة » إلى طرف آخر، لا بد - إن كان حكيمًا - أن يختار ويصطفي « الرسول » الذي لا يبدل ولا يحذف - ساهيًا أو عامدًا - شيئًا من الرسالة التي يريد إبلاغها.. والذي لا يضعف عن إبلاغ هذه الرسالة.. وإلا كان هذا الملك أو الحاكم معدودًا في زمرة « الغافلين - العابثين ».

○ وإذا كان هذا هو حال البشر - أصحاب الحكمة النسبية - فهل يتصوَّرُ عاقلٌ أن يصطفي الحكيم العليم الخبير، لتبليغ رسالته الخاتمة الشاملة الخالدة من يجوز عليه أو يتصور منه السهو أو النسيان أو التبديل لشيء من مكونات هذه الرسالة الإلهية؟!.. أو يتطرق إليه الضعف أو الفشل في أداء هذه الرسالة؟!.. أو أن يكون ممن تجوز عليه الصفات المنفرة منه - كرسول - فتضعف من قدراته على أداء الرسالة.. ومن ثم تقدح في حكمة الذي اختاره واصطفاه؟!.

إن أحكم الحاكمين، وصاحب الحكمة المطلقة، هو ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].. وإن حكمته - سبحانه - قد اقتضت الاصطفاء والاختيار لهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].. ولذلك، فإن عصمة المرسلين في التبليغ عن اللّه هي عقيدة دينية، تقتضيها «الحكمة العقلية» قبل «النصوص النقلية».. ولم يخرج عن هذه العقيدة - من المنتسبين للفكر الديني - سوى الحاخامات اليهود الذين كتبوا بأيديهم أسفار العهد القديم، ونسبوا فيها ما ينافي العصمة إلى الأنبياء والمرسلين.. ثم لحق بهم النصارى الذين أرادوا - لتمييز المسيح عليه السلام عن الرسل والأنبياء - تبني الفكر اليهودي - التلمودي - في نفي العصمة عن الأنبياء والمرسلين.

○ كذلك فالعصمة للمرسلين عقيدة من أمهات العقائد الإيمانية؛ لأنها تمثل ضمانه الصدق والكمال والتمام للوحي الذي بلغه الرسول، وفي هذا الوحي جماع عقائد الدين.. فما جاء به الوحي الإلهي عن الألوهية، وصفات الذات الإلهية، وعن النبوات والرسالات، وعن الكتب السماوية، وعن الملائكة، وعالم الغيب، والحساب والجزاء.. تتوقف الثقة في معالم هذه العقائد الأمهات على صدق البلاغ والتبليغ.. وشرط هذه الثقة العصمة لصاحب البلاغ والتبليغ.

ولأن الجابري - سامحه اللّه - قد زعم اختلاف الفِرَق الإسلامية حول عصمة الرسل.. كان لا بد من أن نقدم طرفًا

من نصوص أئمة هذه الفرق الإسلامية قديمًا وحديثًا، ومن مشارق بلاد الإسلام ومغاربها، وعلى اختلاف مذاهبهم الكلامية والفقهية - تلك النصوص القاطعة بأن العصمة للمرسلين هي عقيدة من أمهات العقائد الإسلامية التي لم يختلف عليها أحد من علماء الإسلام..

○ لقد أفاض القاضي عياض [٤٧٦ - ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣ - ١١٤٩م] في الحديث عن هذه العقيدة الإيمانية الإسلامية - في كتابه الفذ (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى) - الذي مثل معلمًا من معالم تراث الإسلام، فقال:

« .. فالأنبياء والرسل - عليهم السلام - وسائط بين اللَّـه تعالى وبين خلقه، يبلغونهم أوامره ونواهيه، ووعده ووعيده، ويعرّفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه وجلاله وسلطانه وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر، طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانية.

وأرواحهم وبواطنهم متصفة بأعلى من أوصاف البشر، متعلقة بالملأ الأعلى، متشبهة بصفات الملائكة، سليمة من التغير والآفات، لا يلحقها غالبًا عجز البشرية ولا ضعف الإنسانية، إذ لو كانت بواطنهم خالصة للبشرية كظواهرهم لما أطاقوا الأخذ عن الملائكة، ورؤيتهم ومخاطبتهم، ومخالَّتهم، كما لا يطيقه غيرهم من البشر.

ولو كانت أجسادهم وظواهرهم متسمة بنعوت الملائكة وبخلاف صفات البشر لما أطاق البشر ومن أرسلوا إليهم مخاطبتهم ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٥] ..

فجُعلوا، من جهة الأجسام والظواهر مع البشر، ومن جهة الأرواح والبواطن مع الملائكة.. فبواطنهم منزهة عن الآفات مطهرة عن النقائص والاعتلالات..

واعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان، وكفايته منه؛ لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس..

وأما أقواله ﷺ فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه، وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به، لا قصدًا ولا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا..

ولقد وقع إجماع المسلمين على أنه لا يجوز عليه خُلْفٌ في القول في إبلاغ الشريعة والإعلام بما أخبر به عن ربه، وما أوحاه إليه من وحيه، لا على وجه العمد ولا على غير عمد، ولا في حالي الرضى والسخط، والصحة والمرض.. ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤] .. ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] ﴿ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧٠]...

فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مَخْبره على أي وجه كان، فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميزّ لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل..

فلا خلاف أنهم - [الرسل] - معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن ذلك يقتضي العصمة منه المعجزةُ مع الإجماع على ذلك من الكافة..

هذا فيما طريقه البلاغ.

وأما ما ليس سبيله سبل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام، ولا أخبار المعاد، ولا تضاف إلى وحي، بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه، فالذي يجب اعتقاده: تنزيه النبي ﷺ عن أن يقع خبره في شيء من ذلك بخلاف مخبره، لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه، وجدّه ومرحه، وصحته ومرضه، ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليهم.. وما نُقل في تلقيح النخل كان رأيًا لا خبرًا.. ولقد أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر والموبقات.. وأما في الصغائر.. فالصواب تنزيه النبوة عن قليله وكثيره، وسهوه وعمده؛ إذ عمدة النبوة البلاغ والإعلام والتبيين وتصديق ما جاء به النبي ﷺ، وتجويز شيء من هذا قادح في ذلك مشكك فيه مناقض للمعجزة..

وقال بعض المشايخ: إن النبي ﷺ كان يسهو ولا ينسى، ولذلك نفى عن نفسه النسيان.. لأن النسيان غفلة وآفة، والسهو إنما هو شغل.. فكان النبي ﷺ يسهو في صلاته ولا يغفل عنها،

وكان يشغله عن حركات الصلاة ما في الصلاة، شغلًا بها لا غفلة عنها..

ولقد جوز جماعة من السلف وغيرهم الصغائر على الأنبياء، وهو مذهب أبي جعفر الطبري [٢٢٤ - ٣١٠هـ/ ٨٣٩ - ٩٢٣م] وغيره من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين.. وذهبت طائفة أخرى من المحققين من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر..

أما ما ليس طريقه البلاغ ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ وما يختص به من أمور دينية وأذكار قلبية مما لم يفعله لِيُتَّبَع فيه، فالأكثر من طبقات علماء الأمة على جواز السهو والغلط عليه فيها، ولحوق الفترات والغفلات بقلبه، وذلك بما كُلِّفه من مقاساة الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء، ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال، بل على سبيل الندور، كما قال ﷺ: « إنه ليغان على قلبي - [يتشابه] - فأستغفر اللّـه ». وليس في هذا شيء يحط من رتبته، ويناقض معجزته..

وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات والفترات في حقه ﷺ جملة، وهو مذهب جماعة من المتصوفة وأصحاب علم القلوب والمقامات.. »[1].

---

(١) القاضي عياض: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ص ٥٣، ٤٧٨، ٤٨٧، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٢، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٤٣)، طبعة دار التراث، القاهرة، سنة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

هكذا تحدث الإمام المالكي القاضي عياض عن عقيدة العصمة للرسول ﷺ التي أجمع عليها المسلمون في التبليغ عن اللـه.. وفي الإخبار - في أمور الدين والدنيا - لا عمدًا ولا سهوًا ولا غلطًا.. كما أجمعت على عصمته من الذنوب الكبائر.. وقال علماؤها: إن الصواب هو عصمته من الصغائر أيضًا..

وأما « الآراء » التي لا علاقة لها بالبلاغ ولا بالأحكام ولا بالأخبار.. والتي هي في أمور الدنيا، فإنها اجتهادات بشرية يَرِدُ عليها الخطأ والصواب، لكن الخطأ فيها لا يأتي على سبيل التكرار والاتصال..

وذهبت طائفة إلى عصمته ﷺ من ذلك أيضًا..

ولو أننا اكتفينا بهذا « المقال » النفيس الذي كتبه الإمام العظيم القاضي عياض، في إجماع الأمة على عصمة المرسلين، لكان ذلك كافيًا شافيًا.. لكننا سنورد من نصوص علماء الأمة - على اختلاف مذاهبهم - ما يؤكد هذا الذي ذهب إليه القاضي عياض.. وذلك حتى نضع القارئ أمام « مقالات الإسلاميين » في هذا المقام العظيم - مقام عصمة الأنبياء والمرسلين..

* * *

○ فعلى ذات الدرب سار فيلسوف السلفية، وفقيه الحنابلة، شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ/ ١٢٦٣ - ١٣٢٨م)

فقال عن عصمة الأنبياء والمرسلين:

« إن الأنبياء - صلوات اللّـه عليهم - معصومون فيما يخبرون به عن اللّـه - سبحانه - وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه. كما قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧].. وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].. وقال ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]..

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة، فإن النبي هو المنبئ عن اللّـه، والرسول هو الذي أرسله اللّـه تعالى، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين.

والعصمة في التبليغ معلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع...

وإن اللّـه ﷻ لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنبًا إلا ذكر توبته منه، ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين:

إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها - [أي الذنوب] -.

وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها، ولا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة، فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ومدلول المعجزة.. »[1].

* * *

○ وعلى ذات الدرب - درب اجتماع الأمة وإجماعها على عصمة الأنبياء والمرسلين « بدليل الشرع والعقل والإجماع » كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - سار إمام الظاهرية وفيلسوفها ابن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٤م) فقال معبرًا عن اجتماع الأمة - بفرقها المختلفة - على العصمة للأنبياء والمرسلين:

« وذهبت جميع فرق أهل الإسلام، من أهل السنة والمعتزلة والنجارية والخوارج والشيعة، إلى أنه لا يجوز البتة أن يقع من نبي أصلًا معصية بعمد، لا صغيرة ولا كبيرة.. وهذا هو القول الذي تدين اللـه تعالى به، ولا يحل لأحد أن يدين بسواه »[2].

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى (١٠/ ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣)، (١٥/ ٨٧)، طبعة دار الوفاء، سنة (١٤٢١هـ).

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٤/ ٢٩)، طبعة مكتبة ومطبعة صبيح، القاهرة.

○ ومع هذه الكوكبة من أعلام العلماء سار الإمام القرطبي [٦٧١هـ/ ١٢٧٣م] فقيه المفسرين للقرآن الكريم.. وأحد أعلام المذهب المالكي، فقال - في تفسيره لقول اللّـه تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] -: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ دليل على نبوته؛ لأن اللّـه ﷻ أخبر أنه معصوم، ومن ضَمِنَ سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئًا مما أمره اللّـه به »[1].

* * *

وإذا كنا قد قدمنا هذه النصوص التي سطرها أعلام من علماء الأشعرية والسلفية والظاهرية - وهم جمهور أهل السنة والجماعة - وهي النصوص الشاهدة على الإجماع والاجتماع على عصمة الأنبياء والمرسلين، كعقيدة إيمانية ثابتة بالشرع والعقل والإجماع.. فإن مما يسترعي الانتباه أن هذا الحسم في هذه القضية عند المعتزلة - فرسان العقلانية الإسلامية - لم يكن أقل منه عند الأشعرية والسلفية والظاهرية.. بل ربما كان الحسم عندهم أكبر!..

○ فقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني [٤١٥هـ/ ١٠٢٥م] يقرر:

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٢٤٣)، طبعة دار الكتب المصرية.

– أن العصمة للأنبياء والمرسلين هي من مقتضيات الحكمة الإلهية، ومن ضروريات البعثة، التي تقتضي التعظيم والتبجيل للرسول ﷺ ..

– وأن الرسول معصوم من تعمد المعصية، ومن وقوعها منه حتى على وجه التأويل..

– وأنه معصوم فيما يخبر به..

– ومعصوم من الكذب والتغيير والتبديل فيما يؤديه عن اللّـه..

– ومعصوم قبل البعثة وبعدها من الكبائر ومن كل ما ينفر.. ومن الصغائر التي تنفر..

– وأن السهو والغلط ممتنعان عن الرسول ﷺ في التبليغ، كامتناع الكذب والكتمان عليه..

– وأن جواز السهو على الرسول ﷺ إنما يكون فيما سبق له أداؤه أداءً كاملًا – مثل السهو في الصلاة التي سبق وأداها كاملة – الأمر الذي ينفي شبهة الإخلال بالبلاغ الكامل لهذا الذي وقع فيه السهو..

نعم.. يقرر المعتزلة ذلك كله، ويقولون – بلسان القاضي عبد الجبار –:

« إنه لحكمة اللّـه تعالى، ولأن غرضه من البعثة تعريف المصالح، لو علم أنه – [الرسول] – يختار الكذب فيما يؤيده

لم يكن ليبعثه، لأن ذلك ينافي الحكمة..

فإن قال: فيجب لمثل هذه العلة، ألا تجوّزوا عليه السهو والغفلة فيما يؤديه، وقد ثبت في كثير من العبادات أنه سها فيه، وأخطأ، كنحو ما نقل عنه في الصلاة من السهو، والكلام..

قيل له: إنا لا نجوّز عليه السهو والغلط فيما يؤديه عن اللّه تعالى لمثل هذه العلة التي تقدم ذكرها؛ لأنه لا فرق، في خروجه من أن يكون مؤديًا، بين أن يسهو ويغلط، أو يكتم ويكذب، فحال الكل يتفق في ذلك ولا يختلف، وإنما نجوّز أن يسهو في فعل قد بيّنه من قبل، وأدى ما يلزم فيه، حتى لم يغادر منه شيئًا. فإذا فعله لمصالحه لم يمتنع أن يقع فيه السهو والغلط. ولذلك لم تشتبه على أحد الحالُ في أن الذي وقع منه ﷺ من القيام في - [الركعة] - الثانية هو سهو..

وإذا كان الخطأ والسهو فيما يؤدي - [الرسول] - عن اللّه تعالى لا يجوز، فتعمد المعصية، أو وقوعه على وجه المعصية بتأويل، بألا يجوز أولى.

وقد استدل شيخنا أبو هاشم - [الجبائي [٢٤٧ - ٣٢١هـ/ ٨٦١ - ٩٣٣ م] رحمه اللّه - على ذلك أيضًا، بأن قال: قد عرفنا، بالعَلَم المعجز، أنه يجب أن يُصْدَّق في سائر ما يخبر به، وأنا قد تَعَبَّدنا بذلك من حاله، وتصديق الكذّاب لا يكون إلا كذبًا، لأنه تَعَبُّدٌ بالقبيح، تعالى عزّ عن ذلك، فيجب ألا يجوز عليه الكذب. وقوّى ذلك بإجماع الأمة؛ لأنه لا خلاف بينها أن الواجب في كل ما يُخبَر عنه، أن يصدق فيه، وهذا يمنع من تجويز الكذب في أخباره...

ولأن العقل يدل على أنه تعالى إذا كان إنما يبعث الرسول لتعريف المصالح، ويظهر عليه العَلَم لإيجاب القبول منه، فلا بد من أن يكون معظمًا في الصدور، مستحقًا للرفعة، وإلا لم يحسن في الحكمة أن يُبعث. فصار تقدم هذه المعرفة يقتضي أنه إذا ظهر عليه العَلَم، فلا بد من استحقاقه التعظيم والتبجيل، وأن يكون منزهًا عن الاستخفاف والإهانة.. فإن الغرض بإظهار المعجز هو كونه صادقًا فيما يؤديه من الرسالة، وإن كان صريحه يدل على أنه صادق في أنه رسول.

ولو جوّزنا عليه الكبائر لجوّزنا أن يكذب فيما يؤديه، ويغيّره، ويبدله، وهذا يقدح في دلالة العَلَم على ما يدل عليه..

ولا يجوز على الرسول، قبل البعثة، شيء من الكبائر، وما يجري مجراها في التنفير.. يدل على ذلك أن وقوع ذلك منهم ينفّر عن القبول، وتنزيههم عنه يقتضي سكون النفس إليهم، وأن يقوي الدواعي في القبول منهم.

وقد بينا أن بعثتهم مصلحة، وأنه لا بد من أن تقع على أقوى الوجوه في كونها مصلحة: وأقواها وأولاها أن يكون المبعوث منزهًا عن هذه الأمور المنفرة في كل حال، فيجب أن يثبت كذلك، ولا يجوز خلافه...

[وكذلك الصغائر المنفرة].. فنحن لا نجوّز عليهم - [الرسل] - الصغائر إذا كانت منفّرة، ولذلك لم نجوّز عليهم الكذب ولا الصغائر المستخفة...

أما الصغير الذي لا يُسْتَخَفُّ فاعله فغير معتد به؛ لأنه بمنزلة الإقلال من النوافل، فلا يؤثر في خروجه من ولاية اللّـه سبحانه إلى عداوته، ولا له صفة في نفسه تنفّر..

وقال شيوخنا: لا يجوز على الأنبياء - عليهم السلام - في الخلْقة والأخلاق، ما ينفّر، كما لا يجوز ذلك في الأفعال.. ولا يجوز في الرسول أن يخرج عن كمال العقل.. »[1].

* * *

هكذا اجتمعت « مقالات الإسلاميين » من مختلف فرق الإسلام الكلامية، ومذاهبهم الفقهية، على عصمة الأنبياء والمرسلين، عقيدة من عقائد الإسلام، الثابتة بالشرع والعقل والإجماع.. وهكذا تحدث عن هذه العقيدة الإيمانية أعلام علماء الأمة - من المشارقة والمغاربة - على امتداد تاريخ الإسلام..

* * *

○ وفي العصر الحديث، وجدنا ذات الموقف عند إمام مدرسة الإحياء والتجديد، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦- ١٣٢٣هـ / ١٨٤٩- ١٩٠٥م] .. الذي فصل في

---

(١) القاضي عبد الجبار: المغني في أبواب التوحيد والعدل (١٥/ ٢٨١، ٢٨٦، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣١٢، ٣٨٧)، تحقيق: محمود الخضيري، د. محمود قاسم، مراجعة: د. إبراهيم بيومي مدكور، إشراف: د. طه حسين، طبعة القاهرة، سنة (١٣٨٥هـ).

هذه القضية - قضية عصمة الأنبياء والمرسلين - فقال:

« إن من لوازم الإيمان الإسلامي: وجوب الاعتقاد بعلو فطرة الأنبياء والمرسلين، وصحة عقولهم، وصدقهم في أقوالهم، وأمانتهم في تبليغ ما عُهد إليهم أن يبلغوه، وعصمتهم من كل ما يشوّه المسيرة البشرية، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة، وأنهم منزهون عما يضاد شيئًا من هذه الصفات المتقدمة..

وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية.. إن لنفوسهم من نقاء الجوهر، بأصل الفطرة، ما تستعد به من محض الفيض الإلهي، لأن تتصل بالأفق الأعلى، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا، وتشهد من أمر اللّه شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحًا على ما يتلقاه أحدنا من أساتذة التعاليم، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ما علمت، ودعوة الناس إلى ما حُملت على إبلاغه إليهم..

فهؤلاء الأنبياء والمرسلون من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص.. يعلّمون الناس من أنباء الغيب ما أذن اللّه لعباده في العلم به، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده.. يميزهم اللّه بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يطيقون للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله

جلاله وعظمته، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون في مراتبهم العلوية على نسبة من العَالَمَيْن، نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم في الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة في لباس من ليس من سكانها..

ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله بما خفي عن العقول من شؤون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدّر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من علمه، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول أفهامهم، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة، تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم، وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله، ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال، ظاهرة وباطنة..

ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات، حتى تقوم لهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة، فيكونون بذلك رسلًا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين..»[١].

هكذا تحدث حكيم التجديد الديني - في العصر

---

(١) الأعمال الكاملة لمحمد عبده (٣/ ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢١)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م)، وطبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

الحديث - بهذه القطعة من الحكمة الإسلامية العميقة والرفيعة عن عصمة الأنبياء والمرسلين، وعن مكانتهم في هذا الوجود: عقول الإنسانية.. نهاية الشاهد وبداية الغائب.. الناظرون بأنوار العلم الإلهي.. وفد الدنيا إلى الآخرة، ووفد الآخرة إلى الدنيا.. المشرفون على الغيب بإذن اللّه.. إلى آخر ما في هذه القطعة من الحكمة الإسلامية العالية..

* * *

وعلى هذا الدرب - في العصر الحديث أيضًا - سار الإمام محمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/ ١٨٦٥-١٩٣٥م].. الذي اعتبر العصمة للأنبياء والمرسلين من مقتضيات الحكمة الإلهية - فقال:

« .. وإذا كان إرسال الأنبياء إلى البشر لأجل هدايتهم إلى تزكية أنفسهم بما تصلح به أحوالهم في دنياهم، ويستعدون به لحياة أعلى من هذه الحياة الدنيا في نشأة أخرى، فلا يتم هذا الغرض ولا تتحقق هذه الحكمة إلا إذا كان هؤلاء الأنبياء أهلًا لأن يُقتدى بهم في أعمالهم وسيرتهم، والتزام الشرائع والآداب التي يبلغونها من ربهم، ومن ثم قال علماؤنا بوجوب عصمة الأنبياء من المعاصي والرذائل. وبالغ بعضهم حتى قالوا بعصمتهم من الذنوب الصغائر كالكبائر قبل النبوة وبعدها، وخص بعضهم العصمة من الصغائر بما كان باعثه الخسة والدناءة..

واليهود لا يقولون بهذه العصمة.. والنصارى يجعلون

معاصي الأنبياء دليلًا على عقيدتهم، وهي أن المسيح هو المعصوم وحده؛ لأنه رب وإله.. وهذه العقيدة وثنية مخالفة لدين الأنبياء وكتبهم وللعقل، ومطابقة للأديان الوثنية الهندية وغيرها..

ولقد جاء القرآن فقص علينا خبر أنبياء اللّه ورسله، وأنهم كانوا من الصالحين الذين يُقتدى بهم في البر والتقوى، كقوله في سورة الأنبياء: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]..

فالعصمة للأنبياء من معصية اللّه بمخالفة وحيه إليهم، إذ لو عصوه لكان أتباعهم مأمورين من اللّه بالمعصية؛ لأنه أمرهم باتباعهم، وقال في نبينا ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].. »[1].

* * *

هكذا أجمعت الأمة - على اختلاف فرقها ومذاهبها.. وعلى امتداد تاريخها - على أن العصمة للأنبياء والمرسلين هي عقيدة إيمانية، تقتضيها الحكمة الإلهية، المنزهة

---

(١) رشيد رضا: الوحي المحمدي (ص ٤٥، ٥١)، طبعة مكتبة الوفاء، ودار المنار، القاهرة، سنة (١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م).

عن البعث، ويتوقف عليها قبول بلاغهم عن اللّـه ﷻ.. كما اتفقت الأمة على أن هذه العقيدة « قد ثبتت بالشرع والعقل والإجماع ».. بل لقد رأينا المعتزلة - فرسان العقلانية الإسلامية - هم أيضًا فرسان الانتصار لعصمة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلاة والسلام - ..

ولقد وجدنا تفصيل ذلك كله فيما سقناه من « مقالات الإسلاميين » في هذا المقام..

وهكذا شذ الدكتور الجابري عن إجماع الأمة، وسقط في الخطيئة، عندما زعم أن العصمة ليست سوى « فكرة مذهبية مسبقة » اكتسبت طابعًا سياسيًّا ومذهبيًّا في الفكر الإسلامي.. ولقد قادته هذه الخطيئة وهذا السقوط إلى هذه الصورة الزائفة والبائسة التي صوَّر بها رسول اللّـه ﷺ فشذ بذلك حتى عن المنصفين من غير المسلمين، الذين جعلوا إمام أولى العزم من الرسل، إمام المصلحين، الذين جسدوا رسالتهم السامية في أرض الواقع والممارسة والتطبيق[1]..

* * *

(١) من الذين سبقوا الجابري إلى الشذوذ في هذا الموقف: محمد سعيد العشماوي، الذي زعم أن القول بالعصمة من الأفكار النصرانية التي دخلت إلى الإسلام - انظر كتابه: الإسلام السياسي (ص٨٦)، القاهرة، سنة (١٩٨٩م).. وكتابه: أصول الشريعة (ص ١٤٣)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٩م).

(٢)

أما الخطيئة الثانية: للدكتور الجابري - سامحه اللّـه - فهي الصورة الزائفة والشاذة والمشينة التي رسمها لرسول اللّـه ﷺ وللسابقين الأولين من المهاجرين - عقب الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة - ..

○ لقد كذب الجابري عندما صوَّر بيعة العقبة - بين الأنصار والرسول ﷺ -.. وصحيفة المدينة - التي مثلت دستور الدولة الإسلامية الأولى - على أنها:

- « عقد حربي » تحول به الإسلام إلى دين حربي!

- وأوغل الجابري في الكذب، عندما ادعى أن رسول اللّـه ﷺ والمهاجرين من الصحابة قد بدأوا حياتهم بالمدينة المنورة « بقطع طرق التجارة » على قريش.. وذلك لإجبار قريش على الدخول في الإسلام!..

- وادعى - سامحه اللّـه - أن الطمع في الغنيمة قد صار جزءًا أساسيًا في الكيان الإسلامي منذ تأسيس هذا الكيان بالمدينة المنورة..

نعم!.. كذب الجابري كل هذا الكم من الكذب الغريب والعجيب، الذي لم يسبقه إليه حتى الكثيرون من أعداء الإسلام![1].

---

(١) اللهم - في حدود علمي - إلا محمد سعيد العشماوي، انظر كتابنا «

ولأن هذا « الكذب - الجابري » قد استقر في كتابه - موضوع هذه الدراسة - وله ناشر، وله قرَّاء - فإننا - قيامًا بواجب جلاء الحقيقة.. حقيقة الهجرة النبوية.. والعقد الاجتماعي الذي قامت عليه الأمة والدولة بالمدينة.. وحقيقة الغزوات والسرايا التي قام بها المسلمون المهاجرون في المرحلة الأولى للهجرة.. - قيامًا بواجب جلاء حقيقة هذا التاريخ النبوي.. نناقش - بموضوعية كاملة.. ومن خلال أوثق المصادر التاريخية - هذه الدعاوى التي سطَّرها قلم الجابري - سامحه اللّه -..

○ لقد قال الجابري:

« إن « **العقد الاجتماعي** » الذي تأسس عليه كيان الدعوة المحمدية في المدينة هو « **عقد حربي** » .. **وإن الهجرة إنما كانت من أجل تنظيم الحرب ضد مشركي قريش** »[1].

فهل هذا صحيح؟!..

- إن هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة إنما كانت « **إخراجًا** » لهم من ديارهم، ولم تكن « **خروجًا** » بهدف محاربة قريش؛ فقريش هي التي فتنت المسلمين في دينهم - والفتنة أشد من القتل وأكبر - وهي التي حاصرت دعوتهم،

= سقوط الغلو العلماني (ص ١٨، ١٩)، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م).

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٤).

واستفزتهم من أرضهم فأخرجتهم منها.. وكل آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن الهجرة - والتي جاء الجابري ليفسرها - استخدمت جميعها مصطلح « الإخراج » من الديار، وليس مصطلح « الخروج »:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾

[محمد: ١٣].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾

[الأنفال: ٣٠].

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[التوبة: ٤٠].

﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾

[الحج: ٤٠].

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴾

[الحشر: ٨].

﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾

[الممتحنة: ٩].

- وفي اللحظة التي كان رسول اللّـه ﷺ يغادر فيها مكة، ناجاها - والأسى على فراقها يقطر من كلماته - فقال:

« واللّـه إنك لأحب بلاد اللّـه إلى اللّـه، وأحب البلاد إلى نفسي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت »!

وهكذا لم تكن الهجرة - من مكة إلى المدينة - « خروجًا » لقتال قريش، وإنما كانت « إخراجًا » وتهجيرًا من الديار ومن الوطن الحبيب - بل أحب البلاد - !.. وإخراجًا - كذلك - من الأهل والمال والذكريات الممثلة لديوان الحياة ومعناها!..

والقرآن الكريم يجعل من الوطن حياة.. ويسوي بين القتل وبين الإخراج من الديار!.. ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء: ٦٦].

- أما العقد الاجتماعي، الذي تأسس عليه كيان الدعوة المحمدية بالمدينة.. والذي زعم الجابري أنه « عقد حربي » لتنظيم الحرب ضد قريش، فإن وثائقه - في بيعة العقبة.. وفي دستور دولة المدينة - تقطع بأنه كان عقدًا اجتماعيًا وسياسيًا لحماية الرسول والمؤمنين في المدينة، أي « للدفاع » عنهم وليس « عقدًا حربيًا » لغزو قريش ومحاربتها..

لقد بايع الأنصار رسول اللّـه ﷺ في العقبة [١ ق.هـ/ ٦٢١م] « على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم

وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه »[١].

فالبيعة والتعاقد - في العقبة - على حمايته ﷺ وأصحابه في المدينة، وليست على إقامة « كيان حربي » لمحاربة القرشيين..

وكذلك كان الحال في الوثيقة التي مثلت دستور الدولة الإسلامية الأولى - بالمدينة المنورة - والتي نظمت الحقوق والواجبات بين رعية هذه الدولة - والتي اشتهرت في تراث الإسلام بـ « الصحيفة » و « الكتاب » - .. فلقد جاء في هذا الدستور النص على « الدفاع عن المدينة »، وليس الانطلاق منها « للهجوم » .. وبالنص:

« .. وأن بينهم - [سكان المدينة] - النصر على من دَهَم يثرب ».. فهم يتناصرون ضد من يهاجم ويدهم مدينتهم..

كما نصت هذه الوثيقة على تضامن المسلمين واليهود - في المدينة - في « الدفاع » وليس في « الهجوم ».. وبالنص:

« .. وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. »[٢].

---

(١) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير (ص ٧٤)، تحقيق د. شوقي ضيف، طبعة القاهرة، سنة (١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م).

(٢) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (ص ١٥ - ٢١)، تحقيق: د. محمد حميد الله الحيدر آبادي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٥٦م).

تلك هي حقيقة الطابع السلمي والدفاعي لتعاقد بيعة العقبة.. ولدستور دولة المدينة، الذي تأسس عليه الكيان الإسلامي في المدينة المنورة.. والذي لم تَشُبْه شائبة من دعاوي الجابري: أنه كان « عقدًا حربيًا من أجل تنظيم الحرب ضد قريش »..

○ ولقد مضى الجابري - سامحه اللّـه - في افترائه على رسول اللّـه ﷺ وعلى المهاجرين من صحابته، فزعم أنهم قد بدأوا حياتهم بالمدينة بشن سبع سرايا وغزوات لقطع طرق التجارة على قريش وغيرها من القبائل!.. وبنص عباراته:

« فهذه سبع سرايا وغزوات نظمها الرسول ﷺ في مدى ثلاثة عشر شهرًا من مَقْدمِهِ مهاجرًا إلى المدينة، وكانت جميعها بهدف اعتراض القوافل التجارية القرشية[1].. فلقد أخذ النبي ﷺ في مهاجمة قوافل قريش التجارية التي كانت تذهب إلى الشام[2].. ولم يكن اعتراض النبي لقوافل قريش التجارية بدافع الحصول على غنائم، وإنما كان ذلك من أجل حمل قريش على الرضوخ والدخول في الإسلام.. لقد كان ﷺ صاحب رسالة.. غير أن طبيعة الحياة البشرية تقتضي أنه لا بد للنجاح من وسائل، وأولى هذه الوسائل التي يتطلبها تجهيز السرايا والجيوش هي المال، لقد كان لا بد إذن من أن تدخل « الغنيمة » كجزء أساسي في الكيان المادي لجماعة

---

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٥).

(٢) في التعريف بالقرآن (ص ٢٠٣).

المسلمين[١].. وهكذا صارت الغنيمة حاضرة في غزوات النبي ﷺ وسراياه[٢].. وفي السنة الخامسة قاد النبي غزوة دومة الجندل، على نحو (٥٠٠) ميل شمال المدينة.. وهكذا لم يعد المسلمون يقطعون الطريق على تجار قريش وحسب.. بل إنهم أصبحوا قادرين على التوغل شمالاً للسيطرة على الطرق الأخرى..[٣] »!!

هكذا صوَّر الجابري رسول اللَّـه ﷺ والذين هاجروا معه « قطاع طرق » ليس على قريش وحدها، وإنما على غيرها من القبائل ذات المواقع البعيدة عن المدينة، وادعى أن « الغنيمة قد دخلت كجزء أساسي في الكيان المادي لجماعة المسلمين.. وأنها صارت حاضرة في غزوات النبي وسراياه »!

فهل هذا صحيح؟!..

وهل هذه هي الصورة الحقيقية للرسول والذين هاجروا معه؟!..

وهل كانت تلك هي الأغراض والمقاصد من السرايا والغزوات في المرحلة الأولى للهجرة؟!..

○ إن الجابري - سامحه اللَّـه - قد تجاهل تمامًا أن قريشًا قد استولت على تجارات المسلمين وعقاراتهم

---

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٩، ٢٠).

(٢) المرجع السابق، القسم الثالث (ص ٢١).

(٣) المرجع السابق، القسم الثالث (ص ٢٤، ٣٨٢).

وأموالهم.. استولت على كل ما كان يملكه هؤلاء الذين أُخرجوا من ديارهم إلى المدينة المنورة - أي استولت على المال والوطن - .. وأنه لذلك، قد كان لهؤلاء المهاجرين حقوق عند المشركين، تبرر لهم اعتراض القافلة التي فر بها أبو سفيان [٥٧ق.هـ - ٣١هـ/ ٥٦٧- ٦٥٢م] - والتي كانت محاولة اعتراضها سببًا في غزوة بدر [رمضان سنة ٢هـ]..

يتجاهل الجابري أن السعي الإسلامي لاعتراض هذه القافلة كان حقًّا إسلاميًا في « المقاصة » لجزء مما للمسلمين من حقوق مادية - دعك من الحقوق المعنوية المترتبة عن الفتنة في الدين والإخراج من الديار..

لقد كانت هناك « أمانات » لبعض المشركين المكيين ائتمنوا عليها الصادق الأمين ﷺ فعهد لابن عمه علي بن أبي طالب [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م] - ليلة الهجرة - البقاء بمكة لأداء هذه الأمانات إلى أهلها.. ولم يستول عليها مقابل ما صودر من أموال المسلمين.. لكن بقيت لهؤلاء المسلمين الذين أُخرجوا من ديارهم حقوق مادية عند رؤوس الشرك، تقتضي اقتضاءها.. ولذلك كان اعتراض القافلة طلبًا لبعض هذه الحقوق.. وليس « قطعًا للطريق »!.. ولا لإجبار قريش على الدخول في الإسلام!

يتجاهل الجابري ذلك، ويذهب فيصور السرايا والغزوات الإسلامية على أنها كانت « لقطع طرق التجارة »، سعيًا وراء

الغنيمة، التي قال أنها قد أصبحت جزءًا أساسيًا في الكيان الإسلامي لجماعة المسلمين!.

وأمام هذا الافتراء - غير المسبوق - نحتكم - في سبر حقيقته - إلى مصدر تاريخي، كتبه رائد التنوير في عصرنا الحديث رفاعة رافع الطهطاوي [١٢١٦هـ - ١٢٩٠هـ/ ١٨٠١- ١٨٧٣م]، الذي دقق تواريخ الغزوات الإسلامية، ورصد مقاصدها وملابساتها وأسبابها في كتابه الفذ (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز).. ومن خلال هذا المصدر، لهذا الرائد المستنير - الذي لا بد أن يكون موضع الاحترام والمصداقية من الجابري - نقدم الصورة الحقيقية للأسباب الموضوعية لسرايا المسلمين وغزواتهم في المدينة المنورة:

○ إن استعراض مجمل السرايا والغزوات الإسلامية، إنما يعلن عن أنه:

- لم تحدث سرايا ولا غزوات في السنة الأولى للهجرة - على عكس كذب الجابري -.

- وأن ماحدث قبل غزوة بدر [رمضان سنة ٢ هـ/ ٦٢٤م] إنما كان سرايا لتأمين محيط المدينة المنورة والدفاع عنها.

○ أما أولى الغزوات، فكانت غزوة « الأبواء » - عند قرية « ودّان » - سنة [٢هـ/ ٦٢٣م]، وفيها صالح رسول اللّه ﷺ

مجدي بن عمرو الجهني على ألا يغزوهم ولا يغزونه، وألا يكثِّر عليه جمعًا، ولا يعين عليه عدوًّا.. وكتب الرسول بذلك مع سيد بني ضمرة كتابًا.. أي أنها - غزوة « الأبواء » - كانت لتأمين المدينة، ومصالحة سكان الجوار.

○ وفي نفس العام [٢هـ/ ٦٢٣م] كانت الغزوة الثانية، غزوة « بُواط » في شهر ربيع الآخر - أي بعد أكثر من عام على الهجرة - وكانت لاعتراض قافلة قريش، التي كان يقودها أمية بن خلف [٢هـ/ ٦٢٤م] - أحد أكابر المجرمين المشركين الذين احترفوا تعذيب المسلمين بمكة - .. ولم يحدث في هذه الغزوة لقاء ولا قتال.

○ وفي نفس العام [٢هـ/ ٦٢٣م] كانت الغزوة الثالثة، غزوة ذي العشيرة - في شهر جمادى الأولى - وهي التي كانت لاعتراض عير قريش وقافلتها التي كانت متجهة إلى الشام، بقيادة أبي سفيان، وهي العير التي خرج الرسول ﷺ لاعتراضها وهي عائدة من الشام - لاقتضاء بعض ما للمسلمين المهاجرين من حقوق مغتصبة ومصادرة عند مشركي قريش - .. فلما أفلتت العير.. خرجت قريش غازية للمسلمين، ومعتدية عليهم في مدينتهم ومهجرهم، فكانت غزوة بدر الكبرى، رمضان سنة [٢هـ].

○ وفي نفس العام الهجري [٢هـ/ ٦٢٣م] كانت الغزوة الرابعة - غزوة « سفوان » (بدر الأولى) - .. وفيها خرج

رسول اللّه ﷺ إلى كرز بن جابر الفهري، الذي أغار على « نَعَم » المدينة ومواشيها - (سَرْح المدينة) التي تسرح بالغَداة - .. فأفلت كرز، ولم يقع قتال. فكانت هذه الغزوة دفاعية، لمطاردة الذين أغاروا على سَرْح المدينة واغتصبوه ونهبوه..

○ وفي رجب سنة [٢هـ/ ٦٢٤م] كانت سرية عبد اللّه ابن جحش (٣هـ/ ٦٢٥م) - ومعه ثمانية أنفس - ذهبوا إلى « نخلة » - بين مكة والطائف، على بعد ليلة من مكة - « ليتعرفوا أخبار قريش »؛ أي أنها كانت سرية لاستطلاع الأخبار عدد أفرادها تسعة -.. وحدث أن مر بهم عير لقريش فغنموها، وأسروا اثنين من المشركين، فكانت غنيمتهم هذه أول غنيمة غنمها المسلمون، كجزء من المقاصّة لما للمسلمين من حقوق اغتصبها منهم المشركون.

تلك هي حقيقة « المجابهات » التي حدثت منذ الهجرة وحتى بدر الكبرى، في [١٧ رمضان سنة ٢هـ/ ١٥ مارس ٦٢٤م]..

○ أما غزوة بدر الكبرى - في [رمضان سنة ٢هـ] - فكانت دفاعية .. خرج فيها المسلمون - من المهاجرين والأنصار - للدفاع عن دولتهم ومدينتهم ضد الجيش القرشي الذي زحف من مكة للقضاء على الكيان الإسلامي في المدينة المنورة..

○ وبعد غزوة بدر الكبرى، حدثت غزوة السويق في [٥ ذي الحجة سنة ٢ هـ/ ٢٩ مايو سنة ٦٢٤م].. لأن أبا سفيان - انتقامًا مما حدث للمشركين في بدر - تسلل إلى ما حول المدينة، واتصل بسيد بني النضير - من اليهود - ليؤلب على الرسول ﷺ ودولته وأمته، وقتل اثنين من الأنصار، وأحرق حرثهما، وذلك وفاء لنذره الانتقام من المسلمين بسبب بدر الكبرى.. فكانت غزوة السويق دفاعية، ومطاردة لعدوان أبي سفيان على حرم المدينة وجوارها، وقتله اثنين من الأنصار، وإحراقه لحرثهما ولم يقع فيها قتال..

○ وفي أواخر ذي الحجة سنة [٢هـ] وأوائل محرم سنة [٣هـ/ ٦٢٤م] كانت غزوة بني سليم، التي خرج فيها رسول اللّه قاصدًا بني سليم وغطفان، الذين تجمعوا - بين العراق ومكة - لمهاجمة المدينة المنورة.. فلم يجدهم الرسول بذلك المكان فعاد بدون قتال.. أي أنها كانت دفاعية، لإجهاض تجمع بني سليم وغطفان للعدوان على المدينة المنورة.. - ولم تكن لقطع طرق التجارة.. كما كذب الجابري - ..

○ وفي [جمادى الأولى سنة ٣هـ/ أكتوبر سنة ٦٢٤م] كانت غزوة بحران (بني سليم).. عندما بلغ الرسول ﷺ أن بني سليم قد اجتمعوا ثانية لمعاودة غزو المدينة.. فلما خرج لإجهاض هذه المحاولة، وجدهم قد تفرقوا، فعاد إلى المدينة دون قتال..

○ وفي [٧ شوال سنة ٣هـ/ ٢٣ مارس سنة ٦٢٥م] كانت غزوة أُحُد، التي كانت دفاعية، ضد مشركي قريش، الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لتدمير الكيان الإسلامي والأمة الإسلامية فيها..

○ وفي [١٦ شوال سنة ٣هـ/ أبريل سنة ٦٢٥م] كانت غزوة حمراء الأسد، التي خرج المسلمون فيها إلى هذا المكان، وهم مثخنون بجراح أحد، إعلانًا عن صلابة إرادتهم وعزيمتهم، وذلك تخويفًا لعدوهم، الذي انتشى بانتصاره في أحد.. فكانت هذه « الغزوة » مظاهرة لمنع تكرر العدوان المشرك على المدينة المنورة..

○ وفي [شوال سنة ٤هـ/ مارس سنة ٦٢٦م] كانت غزوة « بدر الموعد » التي خرج فيها الرسول ﷺ والمسلمون استعدادًا لصد عدوان قريش، التي نذر قائدها أبو سفيان إعادة الإغارة على المدينة، عندما قال عقب أُحد: « الموعد بيننا وبينكم بدر العام المقبل » - ولذلك سميت « بدر الموعد » -.. ولقد انسحبت قريش - بعد أن خرجت من مكة؛ لعدم ملاءمة الوقت للحرب، فرجع الرسول ﷺ إلى المدينة دون قتال.

○ و (لخمس بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م] كانت غزوة دومة الجندل، بعد شهرين وأربعة أيام من غزوة ذات الرقاع - وهي أول غزوات المسلمين في

الشام - وكان سببها اجتماع جمع من الأعراب - الذين يعيشون تحت حكم الروم البيزنطيين - يظلمون من مرَّ بهم، ولقد عزم هذا التجمع على غزو المدينة المنورة.. فكان خروج المسلمين إلى دومة الجندل إرهابًا لقُطَّاع الطرق هؤلاء، وإجهاضًا لعزمهم على غزو المدينة المنورة.. فلما سمعوا بخروج الرسول ﷺ والمسلمين إليهم، هربوا.. ولم يحدث فيها قتال..

○ وفي [جمادى الأولى سنة ٥هـ/ أكتوبر سنة ٦٢٦م] كانت غزوة بني لحيان.. طلبًا للثأر من هذيل، الذين قتلوا أصحاب رسول الله ﷺ بالرجيع.. فلما وجد المسلمون أن بني لحيان قد فروا، وتحصنوا بحصونهم، عاد المسلمون إلى المدينة دون قتال..

○ وفي [شوال أو ذي القعدة سنة ٥هـ/ إبريل سنة ٦٢٧م] كانت غزوة الخندق، التي كانت دفاعية، ضد الزحف الذي انتظم قريشًا وحلفاءها.. عندما حاصروا المدينة وأحكموا حولها الخناق..

○ وفي سنة [٦هـ/ ٦٢٧م] كانت غزوة ذي قرد - على ميلين من المدينة، على طريق خيبر - .. وكانت ردًا على إغارة عيينة بن حصن - في خيل من غطفان وفزارة - على

لقاح[1] رسول اللّـه ﷺ بالغابة، قبل خيبر.. أي أنها كانت مطاردة للمغيرين المغتصبين..

○ وفي سنة [٦هـ/ ٦٢٧م] كانت غزوة بني المصطلق.. وسببها أن الحارث بن ضرار - سيد بني المصطلق - جمع من قومه ومن العرب من قدر عليه لمحاربة الرسول ﷺ.. فخرج إليهم الرسول لإجهاض غزوتهم وغدرهم وعدوانهم.. فحاربهم دفاعًا عن المدينة وأهلها..

○ وفي [جمادى الأولى سنة ٨هـ/ ٦٢٩م] كانت غزوة مؤتة - بالشام - وهي أولى الغزوات الإسلامية ضد الروم البيزنطيين، الذين احتلوا الشام والشرق وقهروه عشرة قرون.. ولقد كان سببها المباشر قتل الروم لرسول رسول اللّـه ﷺ الحارث بن عمير [٨هـ/ ٦٢٩م] الذي أرسله الرسول برسالته إلى ملك بُصرى.

○ وفي [١٠ رمضان سنة ٨هـ/ أول يناير سنة ٦٣٠م] كان فتح مكة، بعدما نقضت قريش عهدها الذي أبرمته مع الرسول ﷺ والمسلمين في الحديبية سنة [٦هـ/ ٦٢٨م].

ولقد مثل هذا الفتح عودة الذين أخرجوا من ديارهم مكة إلى هذه الديار..

○ وفي [٦ شوال سنة ٨هـ/ يناير سنة ٦٣٠م] كانت

(١) اللقاح - جمع لقحة -: الناقة ذات اللبن، القريبة من الولادة.

غزوة حنين - بالقرب من الطائف - وذلك لمواجهة اجتماع هوازن التي انضمت إليها ثقيف، وبنو سعد بن بكر، وبنو جشم بخيولهم وأموالهم لمحاربة المسلمين بعد فتح مكة..

○ وفي سنة [٩هـ/ ٦٣٠م] كانت غزوة تبوك - بالشام - ضد الروم - وهي آخر الغزوات - ولم يقع فيها قتال.. وإنما كانت إعلانًا نبويًا عن ضرورة تحرير الشرق وأهله ودياناته من قهر الغزوة الإغريقية الرومانية التي دامت عشرة قرون، قهر فيها الغربُ الشرقَ حضاريًا ودينيًا وسياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا.. وفي هذه الغزوة صالح الرسول ﷺ أهل أيلة.. وأهل جرباء.. وأهل أذرح.. وأهل ميناء..

○ أما غزوات الرسول ﷺ - ضد اليهود - بني قينقاع: [منتصف شوال سنة ٢هـ/ أبريل سنة ٦٢٤م] فكانت ردًا على نقضهم العهد مع الرسول ودولة المدينة.. وكذلك ضد يهود بني النضير سنة [٤هـ/ ٦٢٥م] لنقضهم العهد، ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ.. وضد يهود بني قريظة في [ذي الحجة سنة ٥هـ/ ٦٢٧م] لخيانتهم العهد وتحالفهم مع المشركين الذين حاصروا المدينة في غزوة الخندق.. وضد يهود خيبر [أواخر محرم سنة ٧هـ/ أواخر مايو سنة ٦٢٨م] للقضاء على خيانتهم العهد، وتحالفهم مع الشرك الوثني، وتأليبهم المشركين لمحاربة الرسول، وتمويلهم

هذه الحروب.. وإعلانهم لقريش « إنا سنكون معكم حتى نستأصله »!..

تلك هي حقيقة الأسباب والملابسات التي صاحبت هذه الغزوات التي فُرضت على المسلمين فرضًا[1].. والتي مثلت الصراع بين الشرك الوثني - المتحالف مع التآمر والتمويل اليهودي - على امتداد حياة الرسول ﷺ بالمدينة المنورة..

وهي الغزوات والسرايا التي ثبت بالوقائع التاريخية الدامغة أن الموقف الإسلامي فيها كان موقف الدفاع دائمًا وأبدًا.. أو الردع الذي يمنع العدوان والقتال.. ومع عدد الغزوات والسرايا.. ومع ما كتب عنها وفيها.. فإن جميع ضحاياها لم يتجاوز عددهم (٣٨٦ ضحية) - (١٨٣) هم شهداء المسلمين.. و (٢٠٣) هم قتلى المشركين -[2]..

○ ومع هذه الحقائق الصلبة والعنيدة.. وبالرغم منها كذب الجابري.. وافترى على رسول اللّه ﷺ وعلى السابقين الأولين من

---

(١) رفاعة رافع الطهطاوي: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، الجزء الرابع من (أعماله الكاملة)، (ص ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٨١ - ٢٨٣، ٢٨٥ - ٢٨٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣٣١، ٣٥١، ٣٦١، ٣٦٢) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٧م).

(٢) ابن عبد البر: الدرر في اختصار المغازي والسير.. وانظر كتابنا: الفاتيكان والإسلام (ص ٧٧)، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٧م)، والإسلام والآخر (ص ٦٥)، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠١م).

المهاجرين والأنصار، عندما زعم أنهم قد مارسوا صناعة « قطاع الطرق » - بعد الهجرة - « لحمل قريش على الرضوخ والدخول في الإسلام.. وطلبًا للغنيمة، التي دخلت - بزعمه وكذبه - كجزء أساسي في الكيان المادي لجماعة المسلمين »!!.

* * *

وإذا كنا قد تعمدنا أن يكون استعراض حقيقة الغزوات والسرايا الإسلامية من خلال كتاب رائد التنوير رفاعة الطهطاوي (نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز) لنرد بالتنوير الحق على « التنوير الزائف والخبيث ».. فإننا نرد على فرية « دخول الغنيمة كجزء أساسي في الكيان الإسلامي لجماعة المسلمين ». التي افتراها الجابري - نرد عليها من خلال تراث العقلانية الإسلامية - تراث المعتزلة - الذين ناقش فيلسوفهم القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني هذه الفرية - في كتابه الفذ (تثبيت دلائل النبوة) - فقال:

« فإن قيل: أوليس - [الرسول] - قد أباحهم - [المسلمين] - الغنائم، فما تنكرون أن تكون إجابتهم له لهذه العلة؟.

قيل له: هذا لا يسأل عنه من يعقل ولا من يفكر؛ لأن القوم قد اعتقدوا صدقه ونبوته، فكانت إجابتهم له لهذا وعلى هذا، القُربى إلى اللّـه عن رضًا بذلك، فمن ادعى غير هذا فقد أنكر المعلوم، أو يكون لم يسمع الأخبار، فهم إنما أجابوه على أن ينفقوا أموالهم

ويسفكوا دماءهم ويقتلوا آباءهم وأبناءهم في طاعته ولأجله، فكيف يسوغ لعاقل فكّر وتدبّر أن يقول إنما أجابوه طلبًا للدنيا ورغبة في الراحة والدعة. والأمر بالضد من ذلك.

وبعد، فإن لم يكن تبعوه إلا للغارة والغنائم لكانوا يقولون له: ما حاجتنا إليك في الغارة والغنائم، ونحن أعلم بها منك، وهي صناعتنا نحن وعادتنا.. ومن أخذنا بأن نكفّر آباءنا ونشهد بضلالهم ونسخِّف أحلامهم، ونسوِّئ اختيارهم، ونعادي الأمم وجبابرة الملوك، ونسفك دماءنا في طاعتك، ونقتل كل من عاداك وخالفك، وإن كانوا آباءنا وأبناءنا أو إخواننا، ونفارق أوطاننا وأزواجنا، ونهجر اللذات.. ثم لا نحصل إلا على شيء إذا اغتنمناه بقوتنا وغلبنا عليه بأسيافنا بعد المخاطرة بدمائنا أن نسلمه إليك فتعطينا بعضه؟!..

وهذا لا يختاره بُلْهُ النساء، فكيف بالمهاجرين والأنصار، الذين أجابوه فصار بهم في عزة ومنعة، وصبروا على تلك الشرائط التي اشترطها - [في بيعة العقبة] - ...

ولولا أن هذا - [الادعاء بالغنيمة] - قد كان في أهل الذمة وطبقات الزنادقة، وتعدوا به إلى قوم زعموا أنهم من المسلمين، لما ذكرناه، لكنه شيء يستزلون به المسلمين الذين لا ينظرون فيما هذا سبيله، ويغترون بالظاهر..»[1]

---

(١) القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة (١/ ١١، ١٢) تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، طبعة الدار العربية، بيروت، سنة (١٩٦٦م).

هكذا رد القاضي عبد الجبار – فيلسوف المعتزلة والعقلانية الإسلامية – على مقولات «أهل الذمة وطبقات الزنادقة» التي جاء الجابري فتبناها في القرن الواحد والعشرين.. وهكذا حكم القاضي عبد الجبار على أصحاب هذه المقولات بأنهم «لا يعقلون ولا يفكرون ولا يتدبرون»!!..

○ وفوق كل هذا الذي سقناه في تفنيد افتراءات الجابري على رسول الإسلام ﷺ وعلى صحابته من المهاجرين الأولين، أن هجرتهم إنما كانت مشروعًا حربيًا لقطع طرق التجارة، وللقتال لإجبار قريش على الدخول في الإسلام.. نشير إلى أن الجابري – الذي سعى إلى تفسير القرآن الكريم – قد تجاهل أن القرآن – ومن ثم الإسلام – قد تفرَّد – دون الكثير من الفلسفات والأنساق الفكرية – بتقريره أن القتال ليس غريزة وجبلة في الإنسان، وإنما هو ضرورة مفروضة ومكروهة..

لقد فرض القرآن الكريم الكثير من الفرائض والواجبات، التي يتعبد بها المؤمن خالقه، وحبب إلى المؤمنين القيام بهذه الفرائض والواجبات، وأشار إلى ثمراتها في سعادة الإنسان بالمعاش والمعاد.. لكنه عندما تحدث عن القتال – كضرورة لرد العدوان على الدين والوطن – أنبأنا كيف أن هذا القتال كان مكروهًا من جماعة المؤمنين: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] – .. كما أعلن عن أن الله ﷻ إنما «أذن» للمسلمين في هذا القتال – الضرورة

القتال - الضرورة المفروضة المكروهة - لصد المكروه الأكبر والمحظور الأشد والأخطر: الفتنة في الدين، التي هي أشد من القتل. والإخراج من الديار، الذي يعادل القتل والإفناء: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

لقد تجاهل الجابري هذه الفلسفة القرآنية المتفردة في النظر إلى « القتال » باعتباره « ضرورة.. مفروضة.. مكروهة »..

وتجاهل كذلك التطبيق النبوي لهذه الفلسفة القرآنية.. فرسول الإسلام ﷺ الذي اتهمه الجابري - مع صحابته - بأنهم إنما هاجروا ليقطعوا الطرق على قريش وغيرها من القبائل، وذلك سعيًا وراء الغنيمة ولفرض الإسلام على المشركين!!.. رسول الإسلام ﷺ هذا، هو القائل لأصحابه: « لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر اللـه »[1].

كما تجاهل الجابري أن هؤلاء الصحابة - انطلاقًا من هذه الفلسفة القرآنية المتفردة في النظر إلى القتال، ومن التوجيهات النبوية التي تبين وتطبق هذه الفلسفة القرآنية - كانوا يكرهون هذا القتال، ولا يودونه، ويعملون على تجنبه.. وأنهم عندما هاجروا إلى المدينة، وقاموا بمحاولة

---

(١) رواه الدارمي.

اعتراض القافلة التجارية القرشية، إنما كانوا يريدون ويودون «العير» للحصول على بعض حقوقهم التي صادرها ونهبها المشركون.. وكانوا - في ذات الوقت - كارهين «للنفير» والقتال للمشركين..

ولقد تحدث القرآن الكريم - الذي سعى الجابري إلى تفسيره - عن هذا الموقف - موقف الصحابة - من القتال فقال: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧] .. أي أن الصحابة - الذين اتهمهم الجابري بأن هجرتهم إنما كانت مشروعًا حربيًا للقتال - إنما كانوا يودون «العير» التي يحصلون بها على بعض حقهم، ويكرهون «النفير» والقتال الذي فرضه عليهم المشركون عندما زحفوا من مكة إلى المدينة، فدارت المعركة الكبرى عند بدر في رمضان سنة [٢هـ]..

لقد تجاهل الجابري - عفا اللّـه عنه - هذه الفلسفة القرآنية المتفردة إزاء القتال.. والبيان النبوي لهذه الفلسفة القرآنية.. وموقف الصحابة الكاره للقتال.. كما تجاهل وقائع أسباب الغزوات والسرايا - التي سقناها - والتي تشهد على كذب كل المفترين الذين صوروا الهجرة النبوية والدولة الإسلامية بأنها إنما كانت مشروعًا حربيًا للغزو والقتال.

* * *

(٣)

أما الخطيئة الثالثة: فهي قمة الخطايا.. وذروة السقوط الذي انحدر الجابري إلى مستنقعه الآسن.. فكان تشكيكه في الحفظ الإلهي للقرآن الكريم من النقص والزيادة والتغيير والمحو والتبديل..

- لقد ادعى الرجل أن المصحف الإمام - مصحف عثمان، الذي بيد المسلمين - ليس فيه كامل القرآن الذي أوحاه اللّـه ﷻ إلى رسوله ﷺ.. وأن تدوين هذا المصحف الإمام قد حدثت به:

١ - أخطاء..

٢ - ونسيان..

٣ - وتبديل..

٤ - وحذف..

٥ - ونسخ..

- وادعى - كذلك - ما تجاوز به قمة العبث والكذب اللامعقول، فقال: إن جميع علماء الإسلام يعترفون بذلك!!..

* * *

وإذا كان الجابري - سامحه اللّـه - قد ردد - في القرن الواحد والعشرين - ما سبق وادعاه « من لا يعقلون ولا يفكرون ولا يتدبرون من أهل الذمة وطبقات الزنادقة » بتعبير

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥]..

كما تعهد ﷻ بعصمة رسوله ﷺ من أن ينسى شيئًا مما أوحي إليه من القرآن الكريم، فقال:

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ - ٨]..

ولأن الله ﷻ قد شاء أن ينزل القرآن - المجموع في اللوح المحفوظ - منجمًا ومفرقًا، وذلك لاستدامة التثبيت لفؤاد رسوله ﷺ في الصراع مع الشرك والمشركين والكفر والكافرين والنفاق والمنافقين: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٢].. فلقد تعهد - سبحانه - بأن يجمع هذا القرآن - الذي أنزله منجمًا ومفرقًا فقال لرسوله:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]..

ولقد سجل علماء علوم القرآن - قديمًا وحديثًا - الواقع التاريخي لهذا الجمع الإلهي للقرآن الكريم، فقالوا - كما روى الحاكم النيسابوري محمد بن عبد الله [٣٢١هـ -

٤٠٥ هـ/ ٩٣٣ - ١٠١٤م] في (المستدرك) -:

لقد جُمع القرآن ثلاث مرات:

(إحداها): بحضرة النبي ﷺ..

ثم أخرج الحاكم - بسند على شرط الشيخين؛ البخاري ومسلم - عن زيد بن ثابت [١١ ق.هـ - ٤٥هـ/ ٦١١-٦٦٥م] قال: « كنا عند رسول اللَّه ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع.. » - [أي:نجمعه - بحضرة النبي - من الرقاع المدون عليها].

وقال البيهقي - أحمد بن الحسين [٣٨٤هـ - ٤٥٨هـ/ ٩٩٤ - ١٠٦٦م] - في شرح عبارة زيد بن ثابت: « شبه أن يكون المراد: تأليف ما نزل من الآيات المتفرقة في سورها، وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ.. ».

(الثانية): بحضرة أبي بكر [٥١ق.هـ - ١٣هـ/ ٥٧٣ - ٦٣٤م].

قال الحارث المحاسبي [١٦٥هـ - ٢٤٣هـ/ ٧٨١ - ٨٥٧ م] - في كتاب (فهم السنن) -: « كتابة القرآن ليست بمحدثة، فإنه ﷺ كان يأمرهم بكتابته، ولكنه كان مفرقًا في الرقاع والأكتاف والعُسُب، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعًا، وكان ذلك بمنزلة أوراق وُجدت في بيت الرسول ﷺ فيها القرآن منتشرًا، فجمعها جامع، وربطها بخيط

حتى لا يضيع منها شيء ».

(والجمع الثالث): في زمن عثمان (٤٧ق.هـ - ٣٥هـ/ ٥٧٧ - ٦٥٦م).

- فقال القاضي أبو بكر [٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ/ ١٠٧٦ - ١١٤٨م]: - في (الانتصار) -: لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنما قصد جمعهم على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثبت مع التنزيل »[1].

هكذا تم جمع القرآن جمعًا إلهيًا - عند مراجعة جبريل عليه السلام مع رسول اللّه ﷺ عدة مرات قبل انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى - بعد أن تم تدوينه بواسطة كُتاب الوحي الذين تخصصوا في ذلك - وعددهم ثمانية وعشرون كاتبًا.. من وجوه المهاجرين والأنصار -.. ثم ضم أبو بكر الصحائف ونسخها.. ثم جاء عثمان ونسخ هذا النص القرآني على حرف - لهجة - قريش - التي نزل بها - وذلك بعد زوال أسباب رخصة القراءة على سبعة أحرف، التي كانت تيسيرًا على القبائل قبل توحد لهجتها عندما تحولت إلى أمة..

---

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (١ / ٥٧ - ٧٢)، طبعة القاهرة، سنة (١٩٥٣م).

على هذا الحفظ الإلهي.. والجمع الإلهي للقرآن الكريم، شهدت وقائع التاريخ التي تحدثت عنه، والتي سجلها علماء الإسلام في «علوم القرآن».. والتي شهد بها - أيضًا - العلماء المنصفون من غير المسلمين؛ مثل القس الأنجليكاني مونتجمري وات [١٩٠٩ - ٢٠٠٦م] الذي أمضى من عمره أكثر من ثلث قرن في دراسة العربية والقرآن وتراث الإسلام، وتوج ذلك بشهادته للقرآن، تلك التي قال فيها:

«إن القرآن كان يُسجل فور نزوله.. وعندما تمت كتابة هذا الوحي شَكَّل النص القرآني الذي بين يدينا.. إنه كلام اللَّه وحده .. فهو قرآن عربي مبين.. وعندما تحدى محمد أعداءه أن يأتوه بسورة من مثل السور التي أوحيت إليه كان من المفترض أنهم لن يستطيعوا مواجهة التحدي؛ لأن السور التي تلاها محمد هي من عند اللَّه، وما كان لبشر أن يتحدى اللَّه»[١].

○ ومع كل هذا الوضوح والحسم في الحفظ الإلهي للقرآن الكريم.. وفي الجمع الإلهي لهذا القرآن، حاول عدد من المستشرقين اليهود التشكيك في أن مصحف عثمان قد ضم كل القرآن الذي أوحاه اللَّه إلى رسوله ﷺ.. وركزوا

---

(١) مونتجمري وات: الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر (ص٣٦، ٨٣، ١٧٠)، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد اللَّه الشيخ، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة (٢٠٠١م).

جهودهم، التي استنفدت أعمارهم على ما سموه اختلافات بين مصحف عبد اللّـه بن مسعود [٣٢هـ/ ٦٥٣م] - الذي لم يكن من كتاب الوحي الثمانية والعشرين!! - وبين المصحف الإمام - مصحف عثمان -.. لكن هذه المحاولات الاستشراقية اليهودية انهارت على رؤوس أصحابها.. وتحدثت عن هذا الانهيار (دائرة المعارف الإسلامية) - التي كتبها المستشرقون - فقالت عن المصير الذي انتهت إليه جهود المستشرق اليهودي « برجشتر أسر » الذي تخصص وتبحر في « القراءات الشاذة »!.. ومن بعده المستشرق الأسترالي « جفري آرثر »..

وانتهت - (دائرة المعارف الإسلامية) - «.. إلى أنه في الثلاثينيات من القرن العشرين، كان المستشرقون قد جمعوا بالفعل هذه الاختلافات وحللوها، وانتهوا إلى أنه لا قيمة لها، فانهارت الثقة فيها.. وهوت محاولات المستشرقين إصدار نسخة أخرى من القرآن غير نسخة عثمان.. لقد ظهر أن هذه المحاولة عرجاء.. بل إن المستشرق « فيشير » [١٨٦٥ - ١٩٤٩م] انتهى إلى أن معظم الاختلافات المنسوبة لصحابة قبل مصحف عثمان ما هي إلا اختلافات موضوعة مكذوبة..

ووصل إلى هذه الحقيقة أيضًا الباحث « بيرتون » - في كتابه عن (جمع القرآن) - والباحث « ونسبرو » - في كتابه (دراسات قرآنية) - فقالوا: إن كل - وليس بعض - الاختلافات المنسوبة

إلى مصاحف الصحابة وغيرها موضوعة.. والحقيقة هي أن محمدًا كان قد جمع القرآن بالفعل أثناء حياته، وأن القرآن على عهده كان مصاغًا بشكله النهائي..»[1].

هكذا.. وبعد انهيار الجهود الاستشراقية اليهودية.. التي بذلت لإثبات اختلافات بين المصحف الإمام - مصحف عثمان - وبين المدونات السابقة للقرآن - شهد المستشرقون بأن المصحف الإمام قد ضم كل القرآن الذي نزل على رسول الإسلام.. «وأن محمدًا كان قد جمع القرآن بالفعل أثناء حياته، وأن القرآن على عهده كان مصاغًا بشكله النهائي»..

فطابقت شهادة المستشرقين وقائع تاريخ القرآن التي سجلها علماء الإسلام في «علوم القرآن».

* * *

لكن.. وبعد انهيار هذه المحاولات الاستشراقية اليهودية.. جاء الجابري - سامحه الله - ليشكك - بل ويقطع - بأن مصحف عثمان ليس فيه كل القرآن الذي أنزله الله على رسوله ﷺ وأنه قد حدثت في هذا المصحف الإمام:

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٨١٧٩/٢٦) وما بعدها، طبعة القاهرة، سنة (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م)، وانظر كتابنا: حقائق وشبهات حول القرآن الكريم، (ص ٥٥ - ٥٩)، طبعة دار السلام، القاهرة، سنة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

١ - أخطاء..

٢ - ونسيان..

٣ - وتبديل..

٤ - وحذف..

٥ - ونسخ..

بل وشكك في بقاء مصحف عثمان كما كان عليه عند تدوينه - وإن لم يقطع بهذا التشكيك!! -..

نعم!.. لقد اقترف الجابري بهذا الذي ادعاه خطيئة الخطايا.. وبلغ القمة في السقوط!!..

ونحن - في تفنيد هذه « الافتراءات الجابرية » على القرآن الكريم - سنكشف عورات « المنهج العجيب » الذي سلكه هذا الرجل في هذا الافتراء..

○ لقد سبق للجابري - في كتابه (الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية)، المنشور سنة (١٩٨٢م) - أن قال: « إنه يتبنى - في التعامل مع تراثنا - منهجيات غربية، منها ما ينتمي إلى « كانت » (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) أو « فرويد » (١٨٥٦ - ١٩٣٩م) أو « باشلار » (١٨٨٤ - ١٩٦٢م) أو « ألتوسير » (١٩٢١ - ١٩٩٠م) أو « فوكو » (١٩٢٦ - ١٩٨٤م) بالإضافة إلى عدد من المقولات الماركسية، التي

أصبح الفكر المعاصر لا يتنفس بدونها »[1].

فهل كان الجابري وفيًا لهذه المنهجيات الغربية في التعامل مع قضية الحفظ الإلهي للقرآن الكريم؟

إن من قواعد هذه المنهجيات الغربية - رغم تنوعها -: ترتيب مصادر البحث وفق درجتها الموثوقية والعلمية والموضوعية..

○ فالنص المتواتر له الصدارة..

○ والمُحْكَم من هذا المتواتر يسبق - في الصدارة - المتواتر غير المحكم؛ أي المتشابه أو المجازي الذي يحتمل أكثر من معنىً..

○ والحديث المتواتر، قطعيّ الثبوت، يسبق حديث الآحاد، ظني الثبوت..

○ وفي مصادر التاريخ - مثلًا - يلتزم الباحث الجاد - الذي يراعي قواعد هذه المنهجيات - تقديم (تاريخ الطبري) - مثلًا - على (كتاب الأغاني) - لأبي فرج الأصفهاني [٢٨٤ - ٣٥٦هـ/ ٨٩٧ - ٩٦٧م].. وتقديم (كتاب الأغاني) - مثلًا - على (ألف ليلة وليلة).. إلخ.. إلخ..

تلك أبجديات وبدهيات تعارفت عليها مناهج البحث، ليس في الغرب فقط، وإنما في مختلف الثقافات والحضارات..

---

(١) الجابري: الخطاب العربي المعاصر (ص ١٢).

لكن الجابري - في تعامله مع قضية الحفظ الإلهي للقرآن الكريم - لم يلتزم بهذه الأبجديات والبدهيات المنهجية.. وإنما أهدرها، بل وتبنى نقائضها!..

وعلى سبيل المثال:

- فلقد ذهب - في كتابه (في التعريف بالقرآن) - إلى رفض الروايات التي تتحدث عن معجزات مادية أظهرها اللَّـه على يدي رسولنا ﷺ لأن هذه الروايات هي أحاديث آحاد، لا يمكن اعتمادها في مواجهة الآيات المحكمات في النص القرآني المتواتر، التي تقول إن المعجزة التي تحدى بها الرسول ﷺ قومه هي القرآن.. وليست المعجزات المادية[1].

- لكن الجابري لم يلتزم هذا « المنهاج المنطقي » في التعامل مع قضية الحفظ الإلهي للقرآن الكريم.. فأخذ يورد إحدى عشرة صفحة في كتابه هذا[2] ملأها - لا نقول بأحاديث الآحاد.. فليس فيها حديث واحد - وإنما شحنها بالروايات الواهية التي تشكك في القرآن الكريم.. وهي الروايات التي حفل بها كتاب (المصاحف) للسجستاني، ذلك الكتاب الكذوب، الذي نشره أحد المستشرقين..

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٨٧ - ١٩٠).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٢٢ - ٢٣٢).

والذي أعادت طبعه سنة [٢٠٠٥م] أكبر كنائس الشرق، لتوزعه - في فروعها - بالمجان!!..

اعتمد الجابري - للتشكيك في حفظ القرآن الكريم - هذه الروايات الواهية.. بدلًا من أن يعتمد محكمات النص المتواتر المعجز المتحدي - القرآن الكريم - التي تقول عنه الآيات المحكمات:

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]..

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]..

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧]..

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥]..

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ - ٨]..

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]..

ومع هذه الآيات المحكمات - في النص المتواتر

المعجز المتحدي - جاء الوعد الإلهي القاطع، والمؤكد بالعديد من أدوات التأكيد: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]..

لقد أهدر الجابري كل قواعد مناهج البحث العلمي، عندما ضرب صفحًا عن هذه الآيات المحكمات - التي سقنا منها أمثلة فقط - .. واعتمد - بدلًا منها - روايات واهية - ليس فيها حتى حديث آحاد - ليشكك في حفظ القرآن الكريم.. بل ويقطع بأن هذا الوحي القرآني قد أصابته: الأخطاء.. والنسيان.. والتبديل.. والحذف.. والمحو.. والتغيير!!..

○ بل إن المرء ليميل إلى سوء نية الرجل - والعياذ باللّه - عندما يراه يورد كلامًا ساقطًا دسه أعداء الإسلام ونسبوه إلى أم المؤمنين عائشة، تقول فيه:

« نزلت آية الرجم ورضاع الكبير عشرًا. ولقد كانت في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول اللّه ﷺ وتشاغلنا بموته دخل داجن - [شاة] - فأكلها »[١]!!.

ولو لم يكن الجابري سيئ النية، لاستخدم قواعد النقد للمرويات، وهو الذي ملأ الدنيا بالحديث عن المنهج النقدي.. والتفكيك.. والتحليل لبنية النصوص. ولعلم - انطلاقًا من العربية؛ لغة القرآن.. ولغة الرسول.. ولغة عائشة -

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٢٤).

أن الرضاع والرضاعة والإرضاع والمرضع والمرضعة لا يكون إلا في الحولين الأوَّلين من عمر الطفل الرضيع.. ومن ثم فليس هناك ما يسمى « برضاع الكبير » أصلًا!.. ولو شرب هذا الكبير « جرادل » من اللبن لما سمي ذلك رضاعًا!!..

ثم إن القرآن كان يدون - يومئذ - على مواد صلبة؛ على العُسُب: جريد النخل المستقيمة، يكشط عنها خوصها، ثم تجفف، وعلى القُضُم: الجلد الصلب الأبيض، يكتب فيه.. وعلى اللِّخاف: الحجارة البيضاء - وهي مواد صلبة لا تستطيع العنزة أن تأكلها - ..

ثم إن الوحي القرآني كان يدونه « ديوان » مُكوَّن من ثمانية وعشرين كاتبًا، فيهم وجوه المهاجرين والأنصار.. فهب - جدلًا - أن آية دوَّنها أحد هؤلاء الكتَّاب قد أصابها عطب، فإنها تُلْتَمس عند غيره من المدوِّنين الثمانية والعشرين.. أو عند غيرهم من جمهور المؤمنين الذين كانوا يتسابقون إلى حفظ القرآن وتدوينه..

ألم يخطر ببال الجابري - الذي صدَّع الرؤوس بالحديث عن المنهج النقدي - أن يحاكم مثل هذه الروايات الخرافية الواهية إلى العقل والمنطق والمنهاج العلمي في نقد المرويات - الكذوبة - التي وضعها جهلة الزنادقة.. وجازت على عقول المغفلين!..

ولكنه سوء النية، الذي يجعل مفكرًا كبيرًا كالجابري،

يقبل مثل هذه المرويات الواهية المكذوبة، ليشكك بها في حفظ القرآن الكريم..

بل إن سوء النية - عند الجابري - ليتأكد هنا، عندما يورد هذه الرواية - الواهية المكذوبة، ثم لا يشير إلى تعليق الإمام القرطبي [٦٧١ هـ/ ١٢٧٧م] صاحب (الجامع لأحكام القرآن) - وهو من المصادر التي يشير إليها الجابري كثيرًا -.. لا يشير الجابري إلى تعليق الإمام القرطبي على هذه الرواية المكذوبة.. والذي يقول فيه:

« وأما ما يحكى من أن تلك الزيادة كانت في صحيفة في بيت عائشة فأكلتها الداجن، فمن تأليف الملاحدة والروافض »[١].

والجابري - بهذا الذي صنع - قد وقع في « التدليس » عندما أورد رواية التشكيك في الحفظ الإلهي للقرآن الكريم، وامتنع عن الإشارة إلى تفنيد القرطبي لها!..

○ ولقد مضى الجابري - على طريق الخطيئة والسقوط - فوصل إلى « خلاصته الكارثية » التي قطع فيها بأن:

١ - القرآن كان مفرقًا قبل تدوين مصحف عثمان - (والحق أنه كان مجموعًا الجمع الإلهي على رسول الله ﷺ.. ومراجعة جبريل له.. والجمع الذي نُسخ فيه في الصحف

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٤ / ١١٣)، طبعة دار الكتب المصرية.

على عهد أبي بكر الصديق.. وربطت صحائفه برباط، كما تضم ملازم الكتاب) -..

٢ - وأن القرآن - قبل التدوين العثماني - قد حدثت فيه: أخطاء.. ونسيان.. وتبديل.. وحذف.. ومحو!!..

٣ - بل لقد شكك الجابري حتى في بقاء مصحف عثمان دون تغيير.. ولكن بأدلة « غير قاطعة »!..

نعم!.. وصل الجابري - سامحه اللّه - على طريق الخطيئة والسقوط - إلى هذه « الخلاصة الكارثية » التي قال فيها:

« وخلاصة الأمر، أنه ليس ثمة أدلة قاطعة على حدوث زيادة أو نقصان في القرآن كما هو في المصحف بين أيدي الناس، منذ جمعه زمن عثمان.

أما قبل ذلك، فالقرآن كان مفرقًا في « صحف » وفي صدور الصحابة، ومن المؤكد - [لاحظ كلمة « المؤكد »!] - أن ما كان يتوفر عليه هذا الصحابي أو ذاك من القرآن - مكتوبًا أو محفوظًا - كان يختلف عما هو عند غيره - كمًا وترتيبًا، ومن الجائز أن تحدث أخطاء حين جمعه، زمن عثمان أو قبل ذلك، فالذين تولوا هذه المهمة لم يكونوا معصومين.

وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] .. فالقرآن نفسه ينص على إمكانية النسيان

والتبديل والحذف والنسخ »[١].

○ وبعد هذه المتناقضات العبثية واللامعقولة التي جمعها الجابري في « خلاصته البائسة »:

- عدم التعارض بين حدوث التبديل والنسيان والحذف والأخطاء في القرآن، وبين التأكيد الإلهي بحفظه حفظاً إلهيّاً!!..

○ بعد هذه المتناقضات العبثية، يمضي الجابري « لينظِّر » لقبول التشكيك في جمع القرآن، الذي جمعه اللّـه على عهد النبي ﷺ.. والذي ضم أبو بكر صحائفه بعد نسخها، ورَبَطَها.. والذي جمع عثمان الناس على قراءته وفق حرف قريش - لهجتها التي نزل بها -.. يمضي الجابري « لينظِّر » لهذا التشكيك فيقول:

« إن ذلك الذي سقط من القرآن - [كذا!!] - هو من الأمور المقبولة في كل عملية جمع تتم في ظروف مماثلة »[٢]!!.

○ بل إن أكاذيب الجابري لم تقف عند هذه الحدود.. وإنما مضى ليدعي « أن جميع علماء الإسلام - [إي واللّـه!] - قد اعترفوا بحدوث سقوط آيات وسور لم تدرج في المصحف الذي بين أيدينا الآن »!!

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص٢٣٢).

(٢) المرجع السابق (ص٢٢٩).

هكذا افترى الجابري على « جميع علماء الإسلام ».. بعد أن افترى على اللّـه - الذي جمع القرآن - ليأتي الجابري فيقول إنه كان مفرقًا.. وافترى على الصحابة، الذين كوّن منهم رسول اللّـه ﷺ « ديوانًا » لتدوين القرآن.. والذين حفظوه - في الصحائف وفي الصدور -.. ذهب الجابري - بعد أن افترى على اللّـه ورسوله وصحابته - إلى الافتراء على « جميع علماء الإسلام » مدعيًا أنهم قد اجتمعوا على الاعتراف بحدوث سقوط لآيات وسور من المصحف الذي بين أيدي المسلمين.. وفي هذا الادعاء الغريب والعجيب، وغير المسبوق، قال الجابري:

« إن ما يهمنا هنا هو ما يتصل بمسألة جمع القرآن، أعني ما يدخل في نطاق السؤال التالي:

- هل المصحف الإمام - الذي جُمع زمن عثمان، والذي بين أيدينا الآن - يضم القرآن كله، جميع ما نزل من آيات وسور؟ أم أنه سقطت (أو رفعت) منه أشياء حين جمعه؟

والجواب عن هذا السؤال، من الناحية الميدانية، هو: أن جميع علماء الإسلام من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تُدرَج في نص المصحف »[1]!!

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٢٣).

○ وعند حديث الجابري عن سورة « براءة »، وجدناه - وهو المنهجي المحقق.. والحداثي المدقق.. الذي احترف دعاوى النقد لتراث المسلمين - يُخمن - (إي واللّـه يخمن) - سقوط القسم الأول من سورة « براءة » من مصحف عثمان!.. فيقول:

«.. وكل ما يمكن قوله - على سبيل التخمين لا غير - هو أن يكون الجزء الساقط من سورة براءة هو القسم الأول منها، وربما - [لاحظ كلمة « ربما »!] - كان يتعلق بذكر المعاهدات التي كانت قد أُبرمت مع المشركين.. »[1].

○ ولأن الجابري - في المصادر والمراجع - هو « حاطب ليل » فلقد شاء اللّـه له أن يفضح نفسه بنفسه، بإيراده ما ينقض دعواه..

فبعد أن ادعى الدعوة الغريبة والعجيبة التي تقول:

« إن جميع علماء الإسلام، من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تدرج في نص المصحف ».

بعد خمس صفحات من هذا الادعاء الكارثة، يورد الجابري رأي علماء الشيعة المعاصرين « الذين يقولون: إن القرآن كما هو الآن في المصاحف هو القرآن الذي نزل على

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٣١).

محمد بن عبد اللّـه، وأنه لا قرآن غيره »[1].

فأين إذًا هذا الإجماع الذي اجتمع عليه « جميع علماء الإسلام واعترفوا فيه بحدوث سقوط لآيات وربما سور لم تدرج في نص المصحف »؟!!..

○ وكمثال آخر على الجمع العشوائي « لحاطب الليل » هذا.. رأينا الجابري، بعد أن ذهب - في خلاصته « الكارثية البائسة » - إلى حدوث تبديل في القرآن الكريم، وإلى الاستدلال بالآية ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١٠١]..

بعد أن استدل بهذه الآية[2] على حدوث تبديل وحذف وتغيير في القرآن الكريم.. رأيناه يعود لينقض غزله - الذي هو أوهى من بيت العنكبوت - فيقول:

« إن معنى الآية - هنا - العلامة والمعجزة، وهو المعنى الغالب الذي وردت فيه هذه اللفظة في القرآن.. أي إذا كنا قد جعلنا العصا التي تنقلب ثعبانًا علامة على صدق موسى، مثلًا، فقد بدلنا هذه المعجزة بأخرى لتكون علامة على صدق نبوة عيسى، وهي منحه القدرة الكلامية إلى الناس وهو صبي »[3].

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص٢٢٩).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٣٢).

(٣) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٠٥، ١٠٩).

وهكذا تقض الجابري غزله.. فبعد أن زعم أن « الآية » التي تبدلت هي الآية - أي الجملة - القرآنية.. عاد فقطع بأن هذه « الآية » التي تناولها التبديل هي المعجزة، وليست الآية القرآنية!..

○ وبعد أن ادعى الجابري أن النسخ كان من عوامل التغيير والمحو والتبديل التي حدثت في القرآن الكريم.. عاد - رجل المتناقضات - الحاطب في ليل « شبكة المعلومات - والذي ينسب إلى « مصادر » لا يسميها! - عاد لينكر حدوث نسخ، بمعنى المحو والإزالة، في القرآن الكريم.. فقال في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢] ..عاد ليقول:

« إن هذا المحو بمثابة إحكام جديد لمنهج الرسالة وأدلتها ومقاصدها، فالنسخ والإحكام لا يعودان إلى ألفاظ هذه الآية القرآنية أو تلك، بل يعودان إلى مسار الدعوة المحمدية، وإلى سيرورتها الفعلية المقررة في محكم الكتاب.. فليس في القرآن ناسخ ومنسوخ، وكل ما هناك هو وجود أنواع من التدرج في الأحكام من العام إلى الخاص، ومن المطلق إلى المقيد، ومن المجمل إلى المبين، ومن المبهم إلى المعين.. »[1].

---

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٠٥، ١٠٩).

○ وبعد أن استدل الجابري - في « خلاصته الكارثية البائسة »[1] بالآية القرآنية ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩] على وجود محو لآيات قرآنية.. عاد ليؤكد عدم حدوث أي محو لأي آية من آيات القرآن.. فقال - في تفسير ذات الآية -:

« وهكذا يتضح أن قوله: ﴿ يَمْحُوا ﴾ لا علاقة له بالقرآن، ولا يكون بعض آياته تنسخ الأخرى.. »[2].

○ وكذلك حال الجابري - في جميع المتناقضات - مع مصطلح « النسخ ».. فبعد أن زعم في « خلاصته الكارثية البائسة »[3] أن النسخ لآيات القرآن قد كان لونًا من ألوان التغيير والتبديل الذي حدث في القرآن الكريم.. عاد فنقض هذا الادعاء، وأكد على أن لفظ « آية » في القرآن ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ لا يعني الآية القرآنية، وإنما يعني المعجزة والعلامة.. فقال:

« وإذا نحن رجعنا إلى القرآن الكريم، فإننا سنجد لفظ « آية » في جميع الصيغ التي ورد فيها (آية، آيات، آياتي، آياتنا) ينصرف معناه إلى العلامة (أو المعجزة التي تثبت وجود اللّه وقدرته... إلخ).

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٣٢).
(٢) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٠٥، ١٠٨، ١٠٩، ٢١٨).
(٣) في التعريف بالقرآن (ص٢٣٢).

وعلى هذا فلا معنى للقول بالنسخ في القرآن إلا بمعنى أن اللّـه ينسخ معجزة نبي سابق بمعجزة أخرى لنبي لاحق، دليلًا على صحة وصدق نبوة كل منهما، أو ينسخ ظاهرة طبيعية مثل الليل بظاهرة طبيعية أخرى مثل النهار... إلخ دليلًا على قدرته. والنسخ بهذا المعنى هو إحلال شيء مكان شيء آخر، وليس في القرآن قط ذكر لما اصطلح على تسميته « آية » بمعنى قطعة من القرآن.. »[1].

○ ومثال آخر على تناقضات الجابري « حاطب الليل » الذي اغترف مادته في سرعة - ودون تدقيق - ليخرج هذه الدراسة الضخمة في سنوات قليلة - .. موقفه من المراد بمصطلح « الذكر » في القرآن الكريم.. فمرة يبتدع بدعة غريبة وغير مسبوقة عندما يزعم أن « الذكر خاص والقرآن عام، الذكر جزء من الوحي المحمدي، أما القرآن فهو هذا الوحي بجميع أجزائه، الذي يقرؤه جبريل على النبي ليبلغه للناس »[2].

ولو أن الجابري - الذي أعاد ترتيب سور القرآن وفق ما سماه أسباب النزول - قد تتبع مصطلح « الذكر » في القرآن، لوجده قد جاء - منذ بواكير الوحي، في السور المكية - تعبيرًا عن القرآن الكريم.. نجد ذلك في السور المكية: آل عمران (الآية: ٥٨)، والأعراف (الآية: ٦٣، ٦٩)، ويوسف (الآية:

---

(١) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١٠٠، ١٠١).

(٢) في التعريف بالقرآن (ص ١٥٥).

١٠٤)، والحجر (الآية: ٩)، والنحل (الآية: ٤٤)، والأنبياء (الآية: ٢، ٥)، والشعراء (الآية: ٥)، ويس (الآية: ١١، ٦٩)، وص (الآية: ٤٩، ٨٧)، وفصلت (الآية: ٤١)، والقصص (الآية: ٢٥)، والقلم (الآية: ٥١)..

ففي هذه السور المكية - أي منذ بواكير الوحي - أُطلق لفظ «الذكر» على القرآن الكريم.. المحفوظ في اللوح المحفوظ.. والذي إنما نزل منجمًا لتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ.

لكن.. لعل الجابري قد أراد - بهذه البدعة الغريبة - أن ينفي الوعد الإلهي بالحفظ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].. عن «كل» القرآن.. وأن يقصر هذا الحفظ على «بعض» القرآن، توسلًا إلى دليل يدعم تشكيكه في حفظ القرآن الكريم عن التغيير والتبديل والمحو والسهو والنسيان..

لكن الجابري - بعد أن ساق هذه البدعة الغريبة، غير المسبوقة، حتى من غلاة أهل البدع والأهواء - عاد ليناقض نفسه، وليثبت أنه «حاطب ليل»، فأورد ما ينقض هذا الذي قدمه - في نفس الكتاب - بل وفي الصفحة التالية!!.. عاد لينقض غزله العنكبوتي.. وليقول:

«.. وينصرف معنى «الذكر» إلى القرآن نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦].. وقوله - وكأنه يرد عليهم - ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ

﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] .. »[١].

○ وفي إطار سلسلة « المتناقضات الجابرية » - التي جمعها الرجل في كتابه، دون نقد ولا تحقيق - نجده - بعد أن قطع - في « خلاصته الكارثية البائسة »- أن المصحف الذي بأيدينا - مصحف عثمان - لا يضم جميع ما نزل على رسول اللـه ﷺ من آيات وسور.. ومضى في العبث اللامعقول واللامقبول إلى حيث قال:

« إن جميع علماء الإسلام، من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تُدرج في نص المصحف.. »[٢].

بعد هذا الافتراء العابث، والعبث المفترى، عاد الجابري فجمع في كتابه ما ينقض هذا الافتراء.. ووجدناه يورد - في تفسير قوله تعالى - : ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] .. يورد هذه العبارة:

« والقرآن كليته ومفرقه، واحد ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] .. »[٣].

وهي شهادة بأن القرآن - الذي لا يأتيه الباطل من بين

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٥٦).

(٢) المرجع السابق (ص ٢٢٣).

(٣) فهم القرآن، القسم الثالث (ص ١١٠).

يديه ولا من خلفه - هو الذي نزل على محمد ﷺ وليس فقط الذي نسخه عثمان بن عفان!..

كما يورد الجابري - في صفحات أخرى من كتابه - ما ينقض افتراءه على القرآن بادعاء حدوث السقط والمحو والتغيير والتبديل فيه - فيقول - مثلاً -:

« إن هذا المقروء، الذي لم يكن الاعتماد على حفظه من الضياع مقتصرًا على تكرار قراءته وتسجيله في الذاكرة الفردية والجماعية، بل كان يُكتب أيضًا فيما تيسر من سعف النخل وقطع الجلود وورق البردي... إلخ.. ما لبث - [هذا المقروء] - أن أصبح مكتوبًا في صحف يتزايد عددها باستمرار..»[١].

كما يورد هذه العبارات:

« لقد بقي على قيد الحياة معظم الذين باشروا كتابة القرآن منذ البداية، وكثير من الذين حفظوه في صدورهم منذ ابتداء نزوله إلى نهايته قبل وفاة الرسول.

وعندما جمع القرآن في المصحف الذي بين أيدينا اليوم، زمن الخليفة عثمان، تم ذلك بحضور كثير من الصحابة، وكان في مقدمتهم عدد من كتاب الوحي وقرائه.. »[٢].

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ١٦٠).

(٢) المرجع السابق (ص ٢١).

كما يقول:

« إن عملية جمع القرآن من المصاحف قد خضعت لتدقيق كبير وتحريات مشددة »[١].

حتى إن المرء ليحار! أين الجابري من هذه المتناقضات، التي لا يجمعها أفسد التأويلات!.

- خلاصة « كارثية بائسة »، تقطع بأن مصحف عثمان لم يضم كل ما نزل على الرسول ﷺ من القرآن.. وادعاء بإجماع علماء الإسلام على هذا الافتراء!!..

- وعبارات متناثرة - في ذات الكتاب - تقطع بما يناقض وينقض هذا الافتراء!!..

* * *

○ لقد تم تدوين المصحف الإمام - مصحف عثمان - الذي سبق وجمعه اللّه على عهد رسول اللّه ﷺ بمراجعة جبريل القرآنَ مع النبي - مرتبًا ومجموعًا - عدة ختمات - .. وهو - القرآن - المجموع - الذي تم نسخه - على عهد أبي بكر الصديق - في الصحف، مع ضم هذه الصحف وربطها - كما تجمع صحائف الكتاب وملازمه - ..

تم تدوين هذا القرآن سنة [٣٠هـ/ ٦٥٠م] بقراءة - لهجة - قريش - التي نزل بها - بعد توحد الأمة على

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٣٥).

هذه القراءة - اللهجة - وزوال أسباب رخصة القراءة على الأحرف السبعة، التي اقتضتها مرحلة « القبائل » قبل الاندماج في « الأمة ».. أي أن هذا التدوين - في المصحف الإمام - مصحف عثمان - كان نسخ القرآن المجموع على عهد الرسول ﷺ والذي ضمت صحائفه على عهد أبي بكر الصديق.. ولقد تم - يومئذ - حرق المصاحف التي كان بعضها مكتوبة بعض كلماته وفق رخصة القراءة بالحروف السبعة.. وكان بعضها الآخر قد وضع أصحابها كلمات تفسيرية بجانب بعض كلمات القرآن - للتفسير أو التأويل -.. والتي كان بعضها غير شامل لكل القرآن الكريم.. تم حرق هذه المصاحف، حتى تجتمع الأمة - وفق عبارة الحارث المحاسبي [١٦٥ - ٢٤٣هـ/ ٧٨١ - ٨٥٧م] -:

« على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ وإلغاء ما ليس كذلك، وعلى مصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أُثبت مع التنزيل »[1].

ذلك لأن بعض الصحابة كانت لهم « مدونات » من القرآن لا تجمعه كله.. أو لا تلتزم ترتيبه الإلهي.. كما كان بعضهم يضع كلمات للتفسير بجوار بعض ألفاظ القرآن..

ولقد تم - كما قدمنا - هذا التدوين للمصحف الإمام،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن (١/ ٧٢).

الذي جمع الأمة على القراءة التي نزل بها القرآن - قراءة النبي القرشي ﷺ - وعلى الصورة التي سبق تدوينها على عهد الرسول.. وعهد أبي بكر الصديق..

تم ذلك - على عهد عثمان سنة [٣٠هـ/ ٦٥٠م] بحضور آلاف الصحابة الذين يحفظون القرآن « كله » عن ظهر قلب - في مجتمع كانت الحافظة فيه تحتل المرتبة العليا -.. وكان هؤلاء الصحابة الحفاظ القرّاء يتعبدون بتلاوة هذا القرآن آناء الليل وأطراف النهار..

ولقد تم هذا التدوين، لا من هذه الصدور الحافظة وحدها، وإنما أيضًا من المصحف المكتوب والمجموع - في عهد النبي وفي عهد الصديق - .. وتم ذلك بإشراف وقيادة عدد من كتاب الوحي، الذين تخصصوا في تدوينه منذ بدء الوحي.. وكان ثلاثة عشر من كتاب الوحي هؤلاء لا يزالون أحياء، وشهودًا على عملية التدوين والنسخ للمصحف الإمام - مصحف عثمان - وهم:

١ - عثمان بن عفان [٤٧ق.هـ - ٣٥هـ/ ٥٧٧ - ٦٥٦م].

٢ - علي بن أبي طالب [٢٣ق.هـ - ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م].

٣ - الزبير بن العوام [٢٨ق.هـ - ٣٦هـ/ ٥٩٦ - ٦٥٦م].

٤ - زيد بن ثابت [١١ق.هـ - ٤٥هـ/ ٦١١- ٦٦٥م].

٥ - حنظلة بن الربيع [٤٥هـ/ ٦٦٥م].

٦ - معاوية بن أبي سفيان [٢٠ق.هـ - ٦٠هـ/ ٦٠٣ - ٦٨٠م].

٧ - عبد اللّه بن الأرقم [٤٤هـ/ ٦٦٤م].

٨ - معيقب بن أبي فاطمة الدوسي [٤٠هـ/ ٦٦٠م].

٩ - عمرو بن العاص [٣٥ ق.هـ - ٤٣هـ/ ٥٧٤ - ٦٦٤م].

١٠ - محمد بن مسلمة الأوسي [٣٥ ق.هـ - ٤٣هـ/ ٥٨٩ - ٦٦٣م].

١١ - المغيرة بن شعبة [٢٠ ق.هـ - ٥٠هـ/ ٦٠٣ - ٦٧٠م].

١٢ - عبد اللّه بن أبي سرح [٣٧هـ/ ٦٥٧م].

١٣ - سعيد بن العاص [٣ - ٥٩ هـ/ ٦٢٤ - ٦٧٩م][١].

وهكذا اجتمع لهذا الكتاب العزيز من عناصر الموثوقية ما لم يجتمع لكتاب آخر - ديني أو بشري - عبر التاريخ..

وبعبارات شيخ الأمناء الشيخ أمين الخولي [١٣١٣ - ١٣٥٨هـ/ ١٨٩٥ - ١٩٦٦م] التي لخصت جمع القرآن على عهد النبي ﷺ، وعلى عهد أبي بكر الصديق، وعلى عهد

---

(١) انظر كتابنا: حقائق وشبهات حول القرآن الكريم (ص ٢٧ - ٤٦)، طبعة دار السلام، القاهرة، سنة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

عثمان.. وطبيعة كل عملية من هذه العمليات الثلاث:

١- جمع النبي ﷺ للقرآن « بمعنى ضم أجزائه »..

٢ - وجمع أبي بكر - للقرآن - « الذي كأنه جمع الملازم في الكتاب »..

٣ - وجمع عثمان الأمة على حرف واحد - لهجة واحدة - بعد زوال دواعي رخصة القراءة على الأحرف السبعة..

بعبارات شيخ الأمناء، التي قال فيها:

« لقد كان للرسول ﷺ عناية بنشر الكتابة في مجتمعه، وكان له كتبة يكتبون بين يديه القرآن، ويكتبون رسائله، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصًا. ورأى ﷺ لبعضهم أن يتعلموا من اللغات غير لغتهم العربية.

وكذلك كُتب القرآن أولًا بأول، مع حفظ ما ينزل منه كذلك أولًا بأول.

إن القرآن حينما نزل مفرقًا، كان يحفظه نفر من أصحاب الرسول، منهم من حفظه كله بأجمعه ومنهم من حفظ ما تيسر منه، وكان قد كُتب الكتابة التي مكَّنت منها الظروف.. وهذا ما يمكن أن نسميه الجمع الأول للقرآن، إذ اجتمع في صدور حفاظ أقوياء الحافظة.. واجتمع في مكتوبات، وإن لم تأخذ صورة المصحف والكتاب كما نفهمها اليوم، لتفرق المواد التي كانت عليها الكتابة، واختلاف أنواعها..

[ثم] إن هذا الجمع الذي تم في عهد أبي بكر كان الجمع الذي يحقق المعنى المادي للجمع والضم - [فكأنه جمع الملازم في كتاب] - والحال التي تم فيها وبها هذا الجمع تهيئ من الاطمئنان إلى المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول..

.. وإن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع، وإنما هي لهجات مختلفة في اللغة العربية، وُجدت في القرآن جملة، لا أنها كانت سبع لهجات في كل آية وكل موضع من القرآن، ولقد كانت ضرورة حيوية اقتضاها الواقع اللغوي للعربية..

وهذه الضرورة قد ارتفعت الحاجة إليها حين تغير حال المجتمع الإسلامي، عندما انضبط الأمر وتدربت الألسن، وكثر الناس والكُتَّاب..

وعندما ارتفعت هذه الحاجة إلى الأحرف المختلفة جمع عثمان (المصحف الإمام) .. فكان مصحفه حرفًا واحدًا. لقد غدا الناس - بعد جيل تغيرت فيه الحياة تغيرًا جوهريًا كبيرًا - لا ضرورة تقتضي عليهم باستعمال حروفهم، لئلَّا يختلفوا، فقد صاروا بحيث يستطيعون الاتفاق..

وهذا الذي صنعه عثمان، إذا سميناه جمعًا، فإنه لجدير بأن يسمى جمع المسلمين، لا جمع القرآن، فإن جمع القرآن قد كان في عهد الرسول - بمعنى ضم أجزائه .. وفي عهد أبي بكر بما حفظ أصلًا رسميًا يكون مرجعًا، وعَملُ عثمان هو تهيئة هذا

الأصل الرسمي للتداول العملي على حال تلائم الدعوة الإسلامية التي امتدت وتمتد.. »[1].

○ هكذا شهد العلماء الثقات - من القدماء والمحدثين - بعد أن استعرضوا وقائع تاريخ تدوين القرآن الكريم وجمعه - شهدوا على اجتماع أعلى مستويات العناية بالتدوين والجمع لهذا الكتاب العزيز.. تلك العناية البشرية الفريدة، التي مثلت الاستخلاف البشري في تحقيق الوعد الإلهي - المؤكد - بالحفظ لهذا القرآن الكريم..

* * *

لكن الدكتور الجابري - سامحه اللّه - قد أعرض عن هذا الذي كتبه الحارث المحاسبي وعشرات من علماء علوم القرآن - قديمًا -.. والذي كتبه أمين الخولي وعشرات من علماء علوم القرآن - المحدثين -.. كما أعرض الجابري عن شهادات عدد من المستشرقين - الذين فقهوا « تاريخ الإسلام » - مثل « مونتجمري وات » والذين حرروا (دائرة المعارف الإسلامية)، وشهدوا بسقوط وانهيار المحاولات الاستشراقية اليهودية إثبات اختلافات بين المصحف الإمام - مصحف عثمان - وما سبقه من مدونات بعض الصحابة للقرآن الكريم..

---

(١) أمين الخولي: عن القرآن الكريم (ص ٣٠، ٣١، ٣٧، ٤٣، ٤٤)، تقديم: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (٢٠٠٠م).

لقد أعرض الجابري عن طريق العلماء المحققين المنصفين.. وسار في طريق الجهلاء المفترين، ليصل في «خلاصته الكارثية البائسة» إلى دعوى حدوث الأخطاء والنسيان والتبديل والحذف والمحو في القرآن الكريم.. وإلى أن مصحف عثمان - الذي بأيدي المسلمين - «لم يضم القرآن كله» الذي نزل على رسول اللّـه ﷺ..

وبلغ به الافتراء إلى الحد الذي ادعى فيه «أن جميع علماء الإسلام، من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تدرج في نص المصحف»..

بل وادعى أن حدوث كل ذلك في القرآن لا يتعارض مع قول اللّـه ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]..[1].

○ ولأن الجابري قد سقط في مستنقع هذه الخطايا.. كان لا بد وأن نختم هذه الدراسة بنماذج من كتابات علماء الإسلام الذين افترى عليهم الجابري، فزعم أنهم قد أجمعوا على أن القرآن قد سقطت منه آيات وسور لم تدرج في نص المصحف الإمام.. نماذج من كتابات عدد من علماء الإسلام - الذين يمثلون تيارات الفكر الإسلامي ومذاهبه - عبر تاريخ الإسلام - ليرى القارئ إجماع هؤلاء العلماء على

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٣٢، ٢٣٣).

الحفظ الإلهي للقرآن الكريم.. وعلى العناية الفريدة المتفردة التي حظى بها هذا الكتاب العزيز في تاريخ الإسلام..

وذلك حتى يقارن القارئ بين هذه النصوص الموثقة لعلماء الإسلام وبين دعوى الجابري اجتماع هؤلاء العلماء على حدوث أخطاء وحذف ومحو وسهو ونسيان وتبديل في تدوين القرآن الكريم..

إنه الختام الذي يحق الحق ويدفع الباطل.. والذي نسوق فيه نماذج من كتابات كوكبة من أعلام العلماء، حول:

١ - الحفظ الإلهي للقرآن الكريم..

٢ - وعصمة النص القرآني عن التغيير والتحريف..

٣ - وعصمة رسول الإسلام ﷺ من النسيان لشيء من الوحي الذي نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين، ليبلغه ويبينه للعالمين.

○ يقول الإمام الفخر الرازي [٥٤٤ - ٦٠٦هـ/ ١١٥٠ - ١٢١٠م] - صاحب التفسير الكبير - في تفسيره لقول الله ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]..

« يعني: وإنا نحفظ ذلك الذكر من التحريف والزيادة والنقصان..

ونظيره قوله تعالى في صفة القرآن: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]..

وقال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]..

فإن قيل: فلم اشتغلت الصحابة بجمع القرآن في المصحف وقد وعد اللّه تعالى بحفظه، وما حفظه اللّه فلا خوف عليه؟

والجواب: أن جمعهم للقرآن كان من أسباب حفظ اللّه تعالى إياه، فإنه تعالى لمّا حفظه قيضهم لذلك. لقد وعد اللّه تعالى بحفظ القرآن، والحفظ لا معنى له إلا أن يبقى مصونًا من الزيادة والنقصان..

وقال بعضهم: لقد حفظه بأن جعله معجزًا مباينًا لكلام البشر، فعجز الخلق عن الزيادة فيه والنقصان عنه؛ لأنهم لو زادوا فيه أو نقصوا عنه لتغير نظم القرآن، فيظهر لكل العقلاء أن هذا ليس من القرآن، فصار كونه معجزًا كإحاطة السور بالمدينة يحصنها ويحفظها.

وقال آخرون: أعجز الخلق عن إبطاله وإفساده بأن قيّض جماعة يحفظونه ويدرسونه ويشهرونه فيما بين الخلق إلى آخر بقاء التكليف.

وقال آخرون: المراد بالحفظ هو أن أحدًا لو حاول تغييره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا: هذا كذب وتغيير لكلام اللّه تعالى، حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له لحن أو هفوة

في حرف من كتاب اللّه تعالى لقال له الصبيان: أخطأت أيها الشيخ، وصوابه كذا وكذا. فهذا هو المراد من قوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾.

واعلم أنه لم يتفق لشيء من الكتب مثل هذا الحفظ، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، إما في الكثير منه أو في القليل. وبقاء هذا الكتاب مصونًا عن جميع جهات التحريف، مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده، من أعظم المعجزات.

وأيضًا، أخبر اللّه تعالى عن بقائه محفوظًا عن التغيير والتحريف، وانقضى الآن قريبًا من ستمائة سنة - [في عصر الرازي] - فكان هذا إخبارًا عن الغيب، فكان ذلك أيضًا معجزًا قاهرًا..»[1].

○ وفي حفظ القرآن الكريم من التبديل، يقول الإمام الرازي - أيضًا - في تفسيره قول اللّه ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧]:

﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ﴾: أي يمتنع تطرق التغيير والتبديل إليه..

فإن قيل: فيجب ألا يتطرق النسخ إليه..

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (١٩/ ١٣٨، ١٣٩)، طبعة دار الفكر.

قلنا: هذا هو مذهب أبي مسلم الأصفهاني [٢٥٤ - ٣٢٢هـ/ ٨٦٨ - ٩٣٤م] فليس يبعد. وأيضًا فالنسخ في الحقيقة ليس بتبديل؛ لأن المنسوخ ثابت في وقته إلى وقت طريان الناسخ، فالناسخ كالغاية، فكيف يكون تبديلًا؟!.. »[1].

○ كما يقول الإمام ابن كثير [٧٠٠ - ٧٧٤هـ/ ١٣٠١- ١٣٧٣م] - صاحب (تفسير القرآن العظيم) - في تفسير قول اللَّـه ﷻ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]:

« قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل »[2].

كما يقول في تفسير قوله - سبحانه -: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧]:

« ﴿ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾: أي لا مُغير لها ولا مُحرف ولا مُزيل.. »[3].

○ وفي تفسير آية الحفظ، يقول الإمام القرطبي [٦٧١هـ/ ١٢٧٧م] - في (الجامع لأحكام القرآن) -:

« ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعني: القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

---

(١) المصدر السابق (٢١/ ١٠٥).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٤٧)، طبعة دار التراث، القاهرة.

(٣) المصدر السابق (٣/ ٨٠).

من أن يزاد فيه أو ينقص منه.. فتولى سبحانه حفظه، فلم يزل محفوظًا.

وقال في غيره: ﴿ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ ﴾ فوكل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا »[١].

وفي تفسيره لآية نفي التبديل - ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧] - يقول: « أي اتبع القرآن، فلا مبدل لكلمات اللّـه »[٢].

○ وفي تفسير آية الحفظ يقول الإمام الزمخشري [٤٦٧ - ٥٣٨هـ/ ١٠٧٥ - ١١٤٤م] - صاحب (الكشاف) -:

« ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾: فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات، وأنه هو الذي بعث به جبريل إلى محمد ﷺ، وبين يديه ومن خلفه رصد، حتى نزل وبلغ محفوظًا من الشياطين، وهو حافظ له في كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبديل، بخلاف الكتب المتقدمة، فإنه لم يتول حفظها، وإنما استحفظها الربانيين والأحبار فاختلفوا فيما بينهم بغيًا، فكان التحريف، ولم يكل إلى غيره حفظه..

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾: قد جعل ذلك دليلًا على أنه منزل من

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٥).

(٢) المصدر السابق (١٠/ ٣٨٩).

عنده آية، لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية؛ لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما يتطرق على كل كلام سواه »[١].

○ كما قال الزمخشري في تفسير قوله - سبحانه - لنبيه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]...:

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ ﴾: الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا لُقن الوحي نازع جبريل في القراءة ولم يصبر إلى أن يتمها مسارعة إلى الحفظ وخوفًا من أن يتفلت منه، فأُمر بأن يستنصت له، ملقيًا إليه بقلبه وسمعه حتى يُقضى إليه وحيه، ثم يُقفِّيه بالدراسة إلى أن يرسخ فيه.

والمعنى: لا تحرك لسانك بقراءة الوحي مادام جبريل - صلوات الله عليه - يقرأ ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾: لتأخذه على عجلة، ولئلا يتفلت منك.

ثم علل النهي عن العجلة بقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ في صدرك وإثبات قراءته.

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾: جعل قراءة جبريل قراءته. والقرآن: القراءة ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾: فكن مُقفِّيًا له فيه ولا تراسله، وطمئن نفسك أنه

---

(١) الزمخشري: الكشاف (٢/ ٣٨٧، ٣٨٨) طبعة طهران، انتشارات آفتاب.

لا يبقى غير محفوظ، فنحن في ضمان تحفيظه »[١].

○ ويقول الزمخشري - في تفسير آية ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧] .. :

« ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن، ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل، فلا مبدل لكلمات ربك، أي لا يقدر أحد على تبديلها.. »[٢].

○ كما يقول فيلسوف المعتزلة، قاضي القضاة عبد الجبار ابن أحمد الهمداني (٤١٥هـ/ ١٠٢٥م] - في كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) -:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]: « يدل على أن القرآن لا يغير ولا يبدل ولا يزاد فيه ولا ينقص »[٣].

* * *

وكما تجلى هذا الموقف الحاسم لأعلام علماء الإسلام من قضية الحفظ الإلهي للقرآن الكريم من التغيير والتبديل والتحريف.. تجلى موقفهم الحاسم كذلك من عصمة رسول اللّه ﷺ عن أن ينسى شيئًا مما أوحاه إليه مولاه..

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/ ١٩١).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٤٨١).

(٣) القاضي عبد الجبار: تنزيه القرآن عن المطاعن (ص٢٨٣)، طبعة مكتبة النافذة، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

○ فقال الإمام الرازي - في تفسيره لقول اللّـه ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]..

« ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾: أي سنجعلك قارئًا، بأن نلهمك القراءة ﴿ فلا تنسى ﴾ما تقرؤه، والمعنى: نجعلك قارئًا للقرآن تقرؤه فلا تنساه.. أي سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه. ونظيره قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة: ١٦]..

ثم ذكروا في كيفية ذلك الاستقراء والتعليم وجوهًا:

أحدها: أن جبريل ﷺ سيقرأ عليك القرآن مرات حتى تحفظه حفظًا لا تنساه.

وثانيها: أنا نشرح لك صدرك ونقوي خاطرك حتى ستحفظ بالمرة الواحدة حفظًا لا تنساه.

والقول المشهور: في ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ أنه خبر، والمعنى: سنقرؤك إلى أن تصير بحيث لا تنسى وتأمن من النسيان، كقولك: سأكسوك فلا تعرى، أي فتأمن العري.

أما قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾.. فقال الفراء [١٤٤ - ٢٠٧هـ/ ٧٦١ - ٨٢٢م]:

إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمد ﷺ شيئًا، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه - تعالى - لو أراد أن تصير ناسيًا لذلك لقدر عليه، كما قال: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الإسراء: ٨٦]، ثم إنا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك. وقال لمحمد ﷺ: ﴿ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] – مع أنه ﷺ ما أشرك البتة..

وبالجملة، ففائدة هذا الاستثناء أن اللَّـه – تعالى – يعرِّفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل اللَّـه وإحسانه لا من قوته.. فالغرض من قوله ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ نفي النسيان رأسًا، كما يقول الرجل لصاحبه: أنت قسيمي فيما أملك إلا ما شاء اللَّـه، ولا يقصد استثناء شيء.. ذلك أنه لو نسي شيئًا من الواجبات ولم يتذكره أدى ذلك إلى الخلل في الشرع، وإنه غير جائز »[1].

○ ويقول الرازي – أيضًا – في العصمة من النسيان – عند تفسيره لقول اللَّـه – سبحانه –: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ [طه: ١١٤]..:

« روي أنه ﷺ كان يخاف أن يفوته منه شيء، فيقرأ مع الملَك، فأمره بأن يسكت حال قراءة الملَك، ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة، فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين، وبيَّن أنه – سبحانه – متعال عن كل ما لا ينبغي، وأنه موصوف بالإحسان والرحمة، ومن كان كذلك وجب

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٣١/ ١٣١ – ١٣٣).

أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي، وإذ حصل الأمان من السهو والنسيان قال: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ ﴾..»[١].

○ كما قال الرازي - أيضًا - في تفسيره لقول الله - سبحانه -: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]: «قوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ يدل على أن ذلك كالواجب على الله تعالى.. وذلك الوجوب بحكم الوعد.. لأن المقصود من البعثة لا يتم إلا إذا كان الوحي محفوظًا مبرأ من النسيان، فكان ذلك واجبًا نظرًا إلى الحكمة»[٢].

○ وفي تفسير ذات الآية - ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧] - يقول الإمام ابن كثير:

«أي نجمعه في صدرك ثم تقرؤه على الناس من غير أن تنسى منه شيئًا»[٣].

ويقول - ابن كثير - في تفسير آيتي سورة الأعلى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] -:

«﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ يا محمد ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه بأنه سيقرؤه قراءة لا ينساها»[٤].

---

(١) الرازي: التفسير الكبير (٢٢/ ١١٥).

(٢) المصدر السابق (٣٠/ ٢٠١).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٣/ ١٦٧).

(٤) المصدر السابق (٣/ ١٧٦).

○ وفي تفسير هذه الآيات: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦ - ٨] .. يقول الإمام القرطبي:

« قوله تعالى ﴿ سَنُقْرِئُكَ ﴾ أي القرآن يا محمد فنعلمكه ﴿ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ أي فتحفظ.. وهذه بشرى من اللّه تعالى، بشره بأن أعطاه آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه.

وعن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: كان يتذكر مخافة أن ينسى، فقيل: كفيتكه.. ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفراء: إلا ماشاء اللّه، وهو لم يشأ أن تنسى شيئًا، كقوله تعالى: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١٠٨].. ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأعطينك كل ما سألت إلا ما شئتُ، وإلا ما شاء أن أمنعك. والنية على أن لا يمنعه شيئًا، فعلى هذا مجاري الأيمان، يستثنى فيها ونية الحالف التمام »[١].

○ وفي العصر الحديث، فسر هذه الآيات - آيات سورة الأعلى - إمام المجددين الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) التفسير الذي يشهد على عقيدة العصمة للرسول ﷺ من النسيان.. فقال: « ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ [الأعلى: ٦، ٧] -:

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٠/ ١٨).

«أي سننزل عليك كتابًا تقرأه ولا تنسى منه شيئًا بعد نزوله عليك.

ولما كان الوعد على وجه التأبيد واللزوم بما يوهم أن قدرة اللّـه لا تسع تغييره، وأن ذلك خارج عن إرادته جل شأنه، جاء بالاستثناء في قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾، فإنه إذا أراد أن ينسيك شيئًا لم يعجزه ذلك، فالقصد نفي النسيان رأسًا.

وقالوا: إن ذلك كما يقول الرجل لصاحبه: «أنت قسيمي فيما أملك إلا ما شاء اللّـه» لا يقصد استثناء شيء، وهو من استعمال القلة في معنى النفي. وعلى ذلك جاء الاستثناء في قوله تعالى - في سورة هود -: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].. أي غير مقطوع.

فالاستثناء في مثل هذا للتنبيه على أن ذلك التأبيد والتخليد بكرم من اللّـه وسعة جود، لا بتحتيم عليه وإيجاب، وأنه لو أراد أن يسلب ما وهب لم يمنعه من ذلك مانع.

وما ورد من أنه ﷺ نسي شيئًا كان يذكره، فذلك - إن صح - فهو في غير ما أنزل اللّـه عليه من الكتاب والأحكام التي أمر بتبليغها.. وكل ما يقال غير ذلك فهو من مدخلات الملحدين التي جازت على عقول المغفلين فلوثوا بها ما طهر اللّـه، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ويؤمن بكتاب اللّـه، أن يتعلق بشيء من ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴾ تأكيد للوعد مع الاستثناء؛ أي أن الذي وعدك بأنه سيقرؤك، وأنه سيُحَفِظُك ما تقرأ فلا تنساه، عالم بالجهر والسر فلا يفوته شيء مما يكون في نفسك، وهو مالك قلبك وعقلك وخافي سرك، وفي قدرته أن يحفظ عليك ما وهبك وإن كان ذلك من خفيات روحك، ولو شاء لسلبه ولن تستطيع دفعه لأنك لا تستطيع أن تخفي عنه شيئًا.. »[1].

* * *

وإذا كانت هذه النماذج كافية للدلالة على إجماع علماء أهل السنة والجماعة - بمذاهبهم المتعددة.. وعبر عصورهم المتتالية - على الإيمان بالحفظ الإلهي للقرآن الكريم من التحريف والتغيير والتبديل والحذف والمحو والسهو والنسيان والزيادة والنقصان.. وعلى عصمة الرسول ﷺ من أن ينسى شيئًا مما أُوحي إليه من القرآن والأحكام - تلك الفرية التي قال بها الجابري - سامحه اللّه - .. والتي قال عنها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده: « إنها من مدخلات الملحدين، التي جازت على عقول المغفلين، فلوثوا بها ما طهر اللَّه، فلا يليق بمن يعرف قدر صاحب الشريعة ﷺ ويؤمن بكتاب اللَّه أن يتعلق بشيء من ذلك ».

إذا كان هذا هو موقف علماء أهل السنة والجماعة، فإن

---

(١) محمد عبده: الأعمال الكاملة (٥/ ٣٧١، ٣٧٢).

علماء الشيعة - بعد مراجعة مجتهديهم لتراث « المدرسة الأخبارية » - قد اتخذوا ذات الموقف الحاسم، وانضموا إلى علماء أهل السنة والجماعة في الانتصار للحفظ الإلهي للقرآن الكريم.. وأعلنوا ذلك وهم يفسرون ذات الآية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]..

○ فقال الطباطبائي:

« إنه ذِكْرٌ حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل كونه ذِكْرًا، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث تتغير به صفة كونه ذكرًا لله مبينًا لحقائق معارفه. فالآية ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ تدل على كون كتاب الله محفوظًا من التحريف بجميع أقسامه.. فالقرآن محفوظ بعد إنزاله إلى الأبد.. ».

○ وقال الفيض الكاشاني - في تفسير ذات الآية -:

« ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من التحريف والتغيير والزيادة والنقصان »..

○ وقال الشيخ أبو علي الطبرسي [٥٤٨هـ/ ١١٥٣م] في تفسير ذات الآية:

« ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ عن الزيادة والنقصان والتحريف والتغيير.

وعن الحسن: معناه: يتكفل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو

عليه، فتنقله الأمة وتحفظه عصرًا بعد عصر إلى يوم القيامة، لقيام الحجة به على الجماعة من كل من لزمته دعوة النبي ﷺ.. ولا يندرس ولا ينسى..».

○ وقال السيد المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي - المتوفى [٤٢٦هـ/ ١٣٠٥م] -:

«إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار، والوقائع العظام، والكتب المشهورة، وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه.

لقد كان القرآن على عهد رسول اللّه ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه في ذلك الزمان، حيث عيَّن النبي على جماعة من الصحابة حفظهم له، وكان يعرض على النبي عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مجموعًا مرتبًا غير مبتور ولا مبثوث.. ومن خالف في ذلك لا يُعتد بخلافه؛ لأن المخالفين نقلوا أخبارًا ضعيفة ظنوا صحتها، ولا يُرجع بمثلها على المعلوم المقطوع على صحته..».

○ وقال المرجع آية اللّه أبو القاسم الخوئي [١٣١٧ - ١٤١٢هـ/ ١٨٩٩ - ١٩٩٢م] في تفسيره لذات الآية:

«إنها تدل على حفظ القرآن من التحريف، وأن الأيدي الجائرة

لن تتمكن من التلاعب فيه.. »[1].

* * *

ولقد نقل الجابري - الذي افترى على علماء الإسلام، وادعى عليهم الإجماع على حدوث سقط لآيات وسور من القرآن، عند تدوين مصحف عثمان - نقل عن الإمام الخوئي اتفاقه مع علماء أهل السنة والجماعة في « أن جمع القرآن إنما كان بأخذه من « القراء » الحافظين، ومن « المواد المكتوب عليها »، وأن هذا الجمع إنما كان جمعه في مصحف ».

كذلك نقل عنه استشهاده بما كتبه الحارث المحاسبي في المراحل الثلاث لجمع القرآن الكريم..

ونقل الجابري عن الخوئي كذلك « أن اللّه قد أطلق لفظ الكتاب على القرآن في كثير من آياته الكريمة.. ».. وأن جمع عثمان للقرآن إنما كان « جمع المسلمين على قراءة مصحف إمام واحد.. وليس جمع الآيات والسور في مصحف ».

ثم ختم الجابري نقله لآراء الخوئي بقوله:

« إن الروايات التي ذكرها الخوئي هي نفسها التي روتها

(١) انظر ذلك في: رسول جعفريان: أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة، طبعة طهران، سنة (١٩٨٥م)، وطبعة مكتبة النافذة، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م)، بتقديم: د. محمد عمارة، وانظر كذلك: مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي (٦/ ١٢٠)، طبعة القاهرة، سنة (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).

المصادر السنية »[١].

أي أن الجابري يتحدث عن إجماع علماء السنة والشيعة على أن القرآن محفوظ.. ومعصوم من التغيير والتبديل والمحو والسهو والنسيان.. وأنه كان « كتابًا » و « مصحفًا » جامعًا لكل ما نزل به الوحي قبل عصر عثمان بن عفان.. يعترف الجابري بإجماع علماء الإسلام - سنة وشيعة - على هذا.. ومع ذلك.. وبالرغم من ذلك يدعي - في ذات الكتاب - وبعد صفحتين فقط من هذا الاعتراف - « أن جميع علماء الإسلام، من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تندرج في المصحف »[٢]!! وهكذا تبلغ المتناقضات بافتراء الرجل درجة اللامعقول!!

* * *

تلك هي « مقالات علماء الإسلام » بمذاهبهم المختلفة.. وعبر عصورهم المتوالية، التي أجمعت واجتمعت على:

- عصمة الأنبياء والمرسلين من الكتمان أو النسيان لشيء من الوحي والأحكام التي أُمروا ببلاغها إلى الناس.. وعصمتهم من كل ما يُنفِّر أو يشين..

- والحفظ الإلهي للقرآن الكريم من أي تحريف أو تغيير

---

(١) في التعريف بالقرآن (ص ٢٢١).

(٢) المرجع السابق (ص٢٢٣).

أو تبديل أو حذف أو محو أو سهو أو نسيان..

وهي « المقالات » التي مثلت « عقائد إيمانية » شهد بها وعليها « العقل والشرع والإجماع » فتأسس عليها قيام حجة اللّـه على عباده، منذ بدء الوحي والتكليف وإلى أن يرث اللّـه الأرض ومن عليها..

وهي « العقائد الإيمانية » التي جاء الدكتور الجابري - سامحه اللّـه، وغفر له - لينقضها، عندما زعم أن القرآن الكريم قد حدثت فيه: أخطاء.. ونسيان.. وتبديل.. وحذف.. ومحو.. وسقط..!!.. وأن المصحف الإمام - مصحف عثمان - الذي اجتمعت عليه الأمة - لم يضم القرآن كله!!..

كذلك تغافل الرجل - صاحب المنهجيات الحداثية الغربية.. والنزعة النقدية - عن أن القول بحدوث التغيير والتبديل في القرآن الكريم إنما يعني قدرة الذين أحدثوا ذلك على أن يأتوا بشيء من مثل القرآن الكريم، فالتغيير والتبديل يقتضيان القدرة على الإتيان « بالغير » و « البديل ».. وفي القول بهذا - والعياذ باللّـه - تكذيب لرب العالمين، الذي تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بشيء من مثله:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]..

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]..

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]..

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤]..

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]..

يتجاهل الجابري كل هذه الكوارث الفكرية، التي تفضي إليها « جهالاته.. وافتراءاته »، ويمضي ليبلغ قمة الكذب البواح عندما يدَّعي « أن جميع علماء الإسلام، من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تدرج في نص المصحف ».

○ لقد كذب على اللّـه عندما شكك - بل نفى - الحفظ الإلهي للقرآن الكريم.

○ وكذب على رسوله ﷺ عندما نفى عقيدة عصمة الأنبياء والمرسلين..

○ وكذب على صحابة رسول اللّـه ﷺ - الذين رضي

اللّـه عنهم ورضوا عنه - عندما شكك - بل نفى عنهم الأمانة - في تدوينهم كامل القرآن الكريم في المصحف الإمام..

○ وكذب على صاحب الخُلق العظيم ﷺ على صحابته وحوارييه الذين صنعهم على عينه - عندما وصفهم بمحترفي الحروب.. وقطاع الطرق، جريًا وراء الغنائم - التي قال إنها قد صارت جزءًا أساسيًا في الكيان الإسلامي بعد الهجرة إلى المدينة!..

○ كما كذب على جميع علماء الإسلام عندما نسب إليهم الإجماع على هذا الكذب الذي قال!!..

* * *



وبعد...

ففي ختام هذه الدراسة.. ومن باب التذكير بما سبق أن قدمناه من « معالم الجهالات والافتراءات الجابرية ».. فإننا نعيد تذكير القراء بنصوص الرجل الشاهدة على هذه « الجهالات.. والافتراءات »:

• ففي المنهج: أعلن الجابري عن تبنيه للمنهجيات والفلسفات والمفاهيم الوضعية المادية، التي تعود إلى « كانْت » [١٧٢٤ - ١٨٠٤م] و« فرويد » [١٨٥٦ - ١٩٣٩م] و« باشلار » [١٨٨٤ - ١٩٦٢م] و« ألتوسير » [١٩٢١ - ١٩٩٠م] و« فوكو » [١٩٢٦ - ١٩٨٤م] و« ماركس » [١٨١٨ - ١٨٨٣م]، التي - كما قال - « أصبح الفكر المعاصر لا يتنفس بدونها »..

• وفي الموقف من تراث الإسلام: أعلن الجابري عن:

○ « ضرورة الأخذ بالحداثة الأوروبية في مختلف الميادين »..

○ « والعودة للتراث واحتوائه، لتجاوز كل التراث »..

○ « فالحداثة تبدأ باحتواء التراث وامتلاكه، لإقامة سلسلة من القطائع معه »..

○ « والإبداع لا يتم إلا على أنقاض القديم »..

○ « وتحليل بنية التراث هدفها القضاء عليه، وذلك بتحويل الثابت إلى متحول.. والمطلق إلى نسبي.. واللاتاريخي إلى تاريخي.. واللازمني إلى زمني »..

○ « وتحويل العقيدة إلى رأي »..

○ « ولا بد من التحرر من العناصر الرئيسية للمرجعية التراثية: اللغة.. والشريعة.. والعقيدة.. والسياسة..! إذ لا سبيل إلى تجديد العقل إلا بالتحرر من هذه العناصر الرئيسية التي تتكون منها المرجعية التراثية »..

• وعن الرسول ﷺ وأمته ودولته وصحابته: أعلن الجابري:

○ « أن عصمة الأنبياء والمرسلين هي من الأفكار المسبقة، التي اكتسبت طابعًا مذهبيًا وسياسيًا في الفكر الإسلامي »..

○ « وأن الرسول ﷺ كان ينتابه الشعور بالفشل في مهمته »..

○ « وأن العقد الاجتماعي الذي تأسست عليه الدولة والكيان الإسلامي بالمدينة كان عقدًا حربيًا »..

○ « وأن الهجرة إنما كانت من أجل تنظيم الحرب ضد قريش »..

○ « وأن الرسول ﷺ والصحابة المهاجرين قد بدأوا حياتهم - بالمدينة - بقطع الطرق على قريش والقبائل الأخرى »..

○ « وأن الغنيمة قد صارت حاضرة في الغزوات والسرايا،

وجزءًا أساسيًا في الكيان المادي لجماعة المسلمين منذ تأسيس هذا الكيان بالمدينة »..

• وعن القرآن الكريم: ادعى الجابري:

○ « أن المصحف الإمام - مصحف عثمان - الذي بين يدي المسلمين - لم يضم كل القرآن »..

○ « وأن تدوين هذا المصحف - على عهد عثمان بن عفان - قد حدثت به أخطاء.. ونسيان.. وتغيير.. وتبديل.. وحذف.. ومحو.. »..

○ « وأنه - (الجابري) - يخمِّن أن ثلث سورة « براءة » قد سقط من مصحف عثمان »..

○ « وأن جميع علماء الإسلام من مفسرين ورواة حديث وغيرهم، يعترفون بأن ثمة آيات وربما سور قد سقطت ولم تدرج في نص مصحف عثمان »..

* * *

تلك هي بعض « معالم الفكر » للمجهول المفتري - الأستاذ الدكتور محمد عابد الجابري - التي جاءت بكتابه، الذي شاء اللّـه أن يختم به حياته، والذي خصصه للتعريف بالقرآن الكريم.. ولتفسيره حسب ترتيب النزول..

وهي الجهالات والافتراءات التي عرضنالها - بالدراسة.. والنقد.. والتفنيد - في هذا الكتاب..

○ بقي أن نقول:

- إنه لولا أن هذه « الأكاذيب الجابرية » مطبوعة ومنشورة، تشيع هذا « الفُحش الفكري » بين الناس.. لما كتبنا عنها حرفًا واحدًا..

- وإننا نرجو - بهذا التصحيح الذي قدمناه - انقاذ عقول قراء كتاب الجابري من هذا الزيف وهذه الأكاذيب.. التي أشاعها ويشيعها كتابه هذا الذي كتبه عن القرآن الكريم.. وآملين أن يخفف ذلك من تبعات هذا الرجل - الذي أصبح الآن في رحاب مولاه.. وصدق اللّه العظيم:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ١١٦]..

* * *

المصادر والمراجع

آرنولد - سير توماس:

- الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، طبعة القاهرة سنة (١٩٧٠م).

ابن تيمية:

- الفتاوي، طبعة دار الوفاء، مصر، سنة (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

- بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، طبعة القاهرة سنة (١٣٢١هـ).

- منهاج السنة النبوية، طبعة القاهرة، سنة (١٣٢١هـ).

- كتاب الرد على المنطقيين، طبعة دار المعرفة، بيروت.

ابن حزم:

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبعة صبيح، القاهرة.

ابن رشد:

- فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار المعارف، القاهرة، سنة (١٩٨٣م).

ابن عبد البر:

- الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: د. شوقي ضيف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، سنة (١٩٦٦م).

ابن كثير:

- تفسير القرآن العظيم، طبعة دار التراث، القاهرة.

د. أحمد شلبي:

- مقارنة الأديان، طبعة القاهرة.

أمين الخولي:

- عن القرآن الكريم، تقديم: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر،

القاهرة، سنة (٢٠٠٠م).

د. الجابري - محمد عابد:

- مدخل إلى القرآن - في التعريف بالقرآن، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٧م).
- فهم القرآن، ثلاثة أقسام، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠٨م).
- حوار الشرق والغرب، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٩٥م).
- إشكالية الفكر العربي المعاصر، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٨٩م).
- الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٨٢م).
- المشروع النهضوي العربي، طبعة بيروت، سنة (٢٠٠١م).
- التراث والحداثة، طبعة الدار البيضاء، سنة (١٩٩١م).
- تكوين العقل العربي، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٨م).

د. جوتفرايد كونزلن:

- مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، تقديم وتعليق: د. محمد عمارة، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (١٩٩٩م).

الحارث المحاسبي:

- مائية العقل وحقيقة معناه، تحقيق: د. حسين القوتلي، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٨م).

الرازي - فخر الدين:

- التفسير الكبير، طبعة دار الفكر، القاهرة.

الراغب الأصفهاني:

- كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٨م).
- المفردات في غريب القرآن، طبعة دار التحرير، القاهرة، سنة (١٩٩١م).

رسول جعفريان:

- أكذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة، طبعة طهران، سنة (١٩٨٥م). وطبعة مكتبة الناقذة - القاهرة، سنة (٢٠٠٦م) بتقديم: د. محمد عمارة.

رشيد رضا:
- الوحي المحمدي، طبعة مكتبة الوفاء، دار المنار، القاهرة، سنة (٢٠٠٨م).
رفاعة الطهطاوي:
- الأعمال الكاملة، (ج٤) دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٧م).
زالمان شازار - محرر -:
- تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث، ترجمة: د. أحمد هويدي، مراجعة وتقديم: د. محمد خليفة حسن - طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، سنة (٢٠٠٠م).
الزمخشري:
- الكشاف، طبعة طهران.
سلامة موسى:
- اليوم والغد، طبعة القاهرة، سنة (١٩٢٨م).
السيوطي:
- أسباب النزول - طبعة القاهرة، سنة (١٣٨٢هـ).
- الإتقان في علوم القرآن - طبعة القاهرة، سنة (١٩٣٥م).
الطبرسي:
- مجمع البيان لعلوم القرآن، طبعة القاهرة، سنة (١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م).
القاضي عبد الجبار بن أحمد:
- المغني في أبواب التوحيد والعدل، (ج١٥) تحقيق: محمود الخضيري، د. محمود قاسم، مراجعة: د. إبراهيم بيومي مدكور، إشراف: د. طه حسين، طبعة القاهرة، سنة (١٣٨٥هـ)
- تثبيت دلائل النبوة، تحقيق: د. عبد الكريم عثمان، طبعة بيروت، سنة (١٩٦٦م).
- تنزيه القرآن عن المطاعن، طبعة مكتبة النافذة، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).

القاضي عياض:
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، طبعة القاهرة، سنة (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
الغزالي - أبو حامد -:
- الاقتصاد في الاعتقاد، طبعة صبيح، القاهرة.
- مشكاة الأنوار، طبعة القاهرة، سنة (١٩٠٧م).
- المضنون به على غير أهله، طبعة مكتبة الجندي، القاهرة.
- ميزان العمل، طبعة المطبعة العربية - القاهرة.
القرطبي:
- الجامع لأحكام القرآن، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
الماوردي:
- أدب القاضي، طبعة بغداد (١٩٧١م).
د. محمد حميد اللّه - محقق -:
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٥٦م).
محمد سعيد العشماوي:
- الإسلام السياسي، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٩م).
- أصول الشريعة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٧٧م).
محمد عبده:
- الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة بيروت، سنة (١٩٧٢م).. وطبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (٢٠٠٦م).
د. محمد علي أبو هندي:
- مشروع النهضة بين الإسلام والعلمانية: دراسة في فكر محمد عمارة ومحمد عابد الجابري، طبعة دار السلام، القاهرة، سنة (٢٠١٠م).
د. محمد عمارة:
- التيار القومي الإسلامي، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

- الإسلام بين التنوير والتزوير، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (١٩٩٥م).
- سقوط الغلو العلماني، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة (٢٠٠٢م).
- مقام العقل في الإسلام، طبعة نهضة مصر، القاهرة، سنة (٢٠٠٧م).
- الإسلام والآخر: من يعترف بمن ومن ينكر من؟ طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (٢٠٠١م).
- الأنبياء في القرآن الكريم والكتاب المقدس، طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (٢٠١٠م).
- الفاتيكان والإسلام، طبعة مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، سنة (٢٠٠٧م).
- حقائق وشبهات حول القرآن الكريم، طبعة دار السلام، القاهرة، سنة (١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م).

محمد فؤاد عبد الباقي:
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، طبعة دار الشعب، القاهرة.

مركز دراسات الوحدة العربية:
- الحوار القومي الديني، طبعة بيروت، سنة (١٩٨٩م).

د. وات - مونتجمري -:
- الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، طبعة مكتبة الأسرة، القاهرة، سنة (٢٠٠١م).

الواحدي:
- أسباب النزول، طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٦م)

○ موسوعات:
- دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية - طبعة دار القاهرة، سنة (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

***

الكِتَابُ فِي سُطُورٍ

الجابري؛ رحل عن عالمنا بجسده، كما سنرحل نحن وسيرحل كلُّ ما عدا الله؛ فلن يبقى إلا وجهه، لكن مشروعه الفكري ما زال قائمًا، قرأه ويقرؤه الناس، ولذا فمن حق هذا الفكر .. وحق قرائه أن تقال فيه كلمة تجليه؛ خصوصًا وأن الأمر يتعلق " بالمقدس ".. يتعلق بالوحي. ذلك الرحم الذي ولدت منه الأمة وتبلور منه الدِّين الذي استعرت الحرب ضده واشتد أوارها. وانطلاقًا من الاحترام لقراء المشروع الجابري الفكري نعرض ما كتبه عن القرآن بالدراسة التي نرجو أن يكون فيها نقد وتصويب مرشد لقراء كتاب الجابري عن القرآن الكريم... ومن ثم مُزيلًا لما فيه من تأثيرات سلبية على عقول القراء.

الناشر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية

هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٥٦٤٢

فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٠٢٠٢)

الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٠٢٠٣)

www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

